اسم الكتاب

العبـــــادة

حكمة الخالق من خلق الخلائق

أو مـا لأجلــه خلقنا

إعداد

نصر بن محمد بن رواق الصنقري

غفر الله له ولوالديه

العبـــــادة

حكمة الخالق من خلق الخلائق

أو مـا لأجلــه خلقنا

المقدمة :

الْحَمْدُ لله الْعَلِيْم الْحَكِيْم؛ خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ، فَمِنْهُمْ الْطَّائِعُ وَمِنْهُمْ الْعَاصِي، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْزِيْهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ وَنَتُوْبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّٰه وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدَاً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللّٰه وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الْدِّينِ.....أما بعد.

فأُوصِيكُم وَنَفسِي بتَقوَى اللّٰه - عَزَ وَجلَّ - فَهيَ دَليلُ المؤمِنينَ وَشِعَارُ الموحِدينَ ، { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102)}[آل عمران] ،{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)}[النساء] ،{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71)}[الأحزاب]

اعلمْ - حَفِظكَ اللّٰه - أَنكَ مَا خُلقتَ إلاَّ لهدفٍ مُحَددٍ ، وَغَايةٍ وَاحدةٍ هِيَ العِبَادةُ ، والعِبَادةُ فَقَط ، يَقُولُ تَعَالىَ : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)} [الذاريات] ،و الْمَعْنى: مَا خلقتهمْ إلاّ لأدعوهم إِلَى عبادتي وَأَنا مُرِيد العِبَادَة مِنْهُم، وَقد عَلمَ اللّٰه قبلَ أَنْ يخلقهُم من يَعْبُدُه ممّن يكفر بِهِ، وَلَو كَانَ خلقهمْ ليُجبُرَهُم على عِبَادَته لكانوا كلهم عُبَّاداً مُؤمنين.

ومع العلم أن أداء العبادة كما أمر اللّٰه بها هو سبيل سعادة هذه البشرية بأكملها.

ومن المعروف - أيها الكريم - أن مفهوم العبادة في الإسلام شامل؛ فهو لا يقتصر على أداء الشعائر التعبدية فحسب ، أو الشكل الظاهر دون المضمون ، ولكن يشمل جوانب سلوك الإنسان في جميع جوانب حياته، ويحيط بجميع نشاطات الإنسان في الاعتقاد والعبادة والمعاملات والأخلاق, ويأبى على الإنسان إلا أن يعبد اللّٰه في كل قول يقوله وكل عمله يعمله، وأن يبتغي بذلك وجه اللّٰه تعالى. وذلك مصداقًا لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 163] .

فغاية العلم، إذن، تطبيقه في الحياة، ومن وظائفه أن يزيد الإنسان معرفة بربه ليعبده حق عبادته اعتقادًا بوحدانيته، وأداءً لشرائعه، والتزامًا بمنهجه. وأن يؤهله للارتقاء بالحياة وفق معطيات العصر.

ولا يكون هذا سلوكًا موجهًا نحو الذات فقط، ولكن نحو غيره والمجتمع أيضًا، فالمسلم لا يعيش في معزل، ولا يعمل لذاته فقط، بل هو عنصر في جماعة المسلمين، وعضو في المجتمع المسلم وفي المجتمع الإنساني وبذلك فإن تطبيق منهج الله في كل مكان وكل زمان وكل الأمور لخدمة كل الناس غاية من غايات تحصيل العلم في الإسلام، قال الله تعالى: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [إبراهيم: 1] . انظر الاتجاهات الحديثة في تخطيط المناهج الدراسية في ضوء التوجيهات الإسلامية لمحمود أحمد شوق ص138.

وتحقيق العبادة من شروط التمكين - وهذه غاية أولى من هذه الأطروحة - قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)}[النور]. فقد أشارت الآية الكريمة إلى شروط التمكين وهي: الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة ومحاربة الشرك بكافة أشكاله وأنواعه وخفاياه، وأما لوازم استمرار التمكين فهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم. انظر فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص 161 ، وعصر الدولة الزنكية للصلابي ص 197.

ولو نظرت - أخي الحبيب - في عالمنا العربي والإسلامي لوجدت عجبًا! فالأمة تعاني على جميع الأصعدة والمستويات ، فمن اختلال في حياة آحاد الأفراد ، إلى اضطراب في المجتمعات المسلم والعربية ، إلى اختلاف وتناحر على مستوى الحكومات والأنظمة ؛ تشرذم وتقزم ، وتشظ وتأزم ،

وانحراف وتحزب ، أحوال مزرية ، ومآلات - بلا ريب - مخز ية!

والغريب في الأمر أن الأمة تعاني الأوجاع والآلام وعلاجها معها ، وتكابد المشاق وبين يديها راحتها ، وترد الكدر ونهرها الرقراق تحت ناظريها وطوع أمرها يقول - تعالى - مشخصاً حالها هادياً لها محذرًا من مغبة تجاهلها لأمره :{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}[آل عمران :105] ، ويقول :{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46)}[الأنفال] ، إذن الأمة في حاجة إلى أمرين هامين : العمل الصالح [الطاعة] أو العبادة الحقة بمفهومها الشامل ، وجوهرها الكامن ، والوحدة بمفهومها الشرعي [الأخوة الإيمانية] ، يقول تعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)} [النحل]، وإلا صدقت قول القائل :

كالعيسِ في البيداء يقتُلُها الظمأ ***والماءُ فوق ظهورِها محمولُ

التقيت يوما بفضيلة الدكتور عبد الله شاكر - حفظه الله - و كاشفته عزمي على أطروحتي ، وناقشته معاني العبادة ومخالفتها للعادة ، وحاجة الأمة وآحاد الناس لاستحضار العبادة بمعناها الصحيح لتنهض أو يُنهضها مولاها فأجابني - بارك الله فيه - موافقًا على ذلك ؛ مما شجعني للمضي قدمًا لإنهائها لتكون بين يديك - أخي الكريم - بضاعة مزجاة لك غنمها وعلينا غرمها ، فإن كان فيها من حق وخير فلله وحده الفضل والمنة ، وإن كان فيها من خطإٍ أو خطلٍ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله براء من ذلك ، والمنصف يهب خطأ المخطئ لإصابته وسيئاته لحسناته فهذه سنة الله في عباده جزاء وثوابا.

ويبقى أننا نعد للأخوة الإيمانية أطروحة أيضًا ، و نسأل الله السداد ؛فهو ولي ذلك وهو القادر عليه ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا وقدوتنا محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن اهتدى بهداه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتبه راجي عفو ربه

نصر بن محمد بن رواق الصنقري

غفر الله له ولوالديه

مطروح يوم الاثنين

24 من رجب 1437 هـ

المصادف 2من مايو 2016 م

الفصل الأول

معنى العبادة

والسؤال الذي يطرح نفسه : ما العبادة؟

والجواب يحتاج إلى وقفة يكون الإنسان فيها خالياً مما يشغله عن هذا الأمر ، مستجيباً للذي يلقى إليه ، مستعداً للتغير إن احتاج الأمر إليه ، صامداً صابراً على الحق إن كان من أهله ، وحتى لا نطيل عليك المقام تعال نلج معاً إلى المرام .

يقولُ الشاعرُ: أَفِي الْوَلَائِمِ أَوْلَادًا لِوَاحِدَةٍ *** وَفِي الْعِبَادَةِ أَوْلَادًا لِعَلَّاتٍ ؟

قال الإمام الشافعي :

َالْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنِعَ *** و الْحُرُّ عَبْدٌ مَا طَمِعَ

وقال أبو العتاهية:

أطعتُ مَطامِعي فاستعَبَدَتني*** ولوْ أنّي قنعتُ لكنتُ حرّا

وقال عبدالله بن المبارك:

حسبي بعلمي إن نفعْ ما الذُّل إلَّا في الطَّمعْ

مَن راقب اللَّه نزعْ عن سوءِ ما كان صنعْ

ما طار طيرٌ فارتفعْ إلا كما طار وقعْ

وقال آخر:

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ فإنَّ ذاك مضرٌّ منك بالدينِ

واسترزقِ اللّه مما في خزائنِه فإنما هي بينَ الكافِ والنونِ

العبادةُ عِندَ اللُغويين مصدُر عبُد (المضموم الْبَاء) وَتعني : الطَّاعَة مَعَ الخضوع. وَيُقَال طريقٌ مُعَبَّدٌ إذا كَانَ مذلَّلاً بِكَثْرَة الْوَطْء، وبعيرٌ مُعَبَّد إذا كَانَ مَطْليًّا بالقَطِران. والتعبُّد: التذلّل. قَالَ: والمعَبَّد: المذلَّل. أنظر لسان العرب لابن منظور ج 3ص 273، ومعجم لغة الفقهاء للقلعجي و قنيبي ، وتهذيب اللغة لأبي منصور ج2ص141.

فالعبادة لغة ؛ تعني الطاعة - كما بينا سلفًا - فأصل العبودية الذل والخضوع. يُقال: تعبّد فلانٌ لفلان، إذا تذلّل له.

والعبادة هي: عبارة عن نوع محدد من الخضوع لا يسْتحقُهُ إلا المُنعم بأعلى أجناس النِّعم: كالحيَّاة، والفهْم، والسّمع، والبصر. أما التعبيدُ؛ فيُراد به مطلق التذليل. يُقال: طريقٌ مُعَبّدٌ، أي مُمهدٌ للمشي عليه. والتعبُّد أيضا هو التنسُّك، تفرق بين المعاني بحسب الاشتقاق، على حين أن المقصود من قوله تعالى: {فادخلي في عبادي}؛ أي في حزبي، إضافة معنىً جديد للعبادة، ألا وهو الولاء المطلق للمولى سبحانه. وتبعًا لذلك؛ فإن كلا من: العبادة، والخضوع، والتذلل، والاستكانة، ليست سوى قرائب في المعاني(قارن بـ ابن سيده، كتاب المخصص، الطبعة الأولى، (القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، 1320هـ)، السفر الثالث عشر، ص 96).

وإلى جوار المعنى العام أو الأصليّ للعبادة في اللغة - وهو غايةُ الطاعة والخضوع على ما تبين- يُبرِزُ ابنُ تيْمِيةَ - رحمه الله - معنًى آخر لا تتحققُ العبادة في الإسلام إلا من خلاله، ألا وهو "الحب" ، فالدّين يتضمنُ معنَى الخضوع والذُل "يُقال: دِنْتُهُ، فَدَان، أي أذْلَلْتُهُ فَذلَّ. ويُقال: يَدينُ اللّه، ويَدينُ لله، أي: يعبُدُ اللّه ويُطيعهُ، ويخضعُ له. فدّينُ اللّه: عبادتُهُ، وطاعتُهُ، والخضوعُ له.

ولكنّ العبادة المأمورَ بها، تتضمّنُ معنَى الذُّلِّ ومعنى الحبِّ [معا]، فهي تتضمَّنُ غاية الذُّلِّ لله

تعالى، بغايةِ المحبةِ له. فإنّ آخرَ مراتبَ الحُبِّ هو التتيّمُ ... يُقال: تيْمُ اللّه، أيّ عبْدُ اللّه، فالمُتيّمُ: [هو] المعبَّدُ لمحبوبهِ. ومَن خضعَ لإنسان مع بُغْضِهِ له [كحال الاضطرار] لا يكونُ عابدًا له، ولو أحبَّ شيئًا ولمْ يخْضَعْ لهُ، لم يكن عابدًا له"(انظر العبودية، لابن تيمية، (ط دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع، 2003م)، ص 14-15).

ففي هذا النص يساوي شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ما بين الدين والعبادة أولًا، ثم يشترط توافر صفتي الذل والمحبة لأجل تمام معنى العبادة ثانيًا. وإذا كانت العبادة لله تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد، وكمال الذل المتضمن معنى التعظيم؛ فإنّ القلب يكون فقيرًا بالذات إلى الله من وجهين:

أولهما: من جهة العبادة ؛ وهي الحكمة الغائية للدين.

ثانيهما: من جهة الاستعانة والتوكل؛ وهي الحكمة الفاعلية.

وبذلك يظل العبد مفتقرًا دائمًا إلى حقيقة: "لا إله إلا الله"، وحقيقة: "إياك نعبد وإياك نستعين"، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المراد المعبود، ومن حيث هو المستعان به المتوكل عليه.
ومن ثم؛ لا تتم عبودية الله إلا بهذين الأصلين "فمتى كان يُحب غير الله لذاته أو يلتفتُ إلى غير الله بعينه، كان عبدًا لما أحبه ورجاه بحسب حبه له ورجاؤه إياه. وإذا لم يحب لذاته إلا الله، وكلما أحب سواه فإنما أحبه له، ولم يرج قط شيئًا إلا الله، وإذا فعل من الأسباب أو حصّل ما حصّل منها، كان شاهدًا أن الله هو الذي خلقها وقدّرها، كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك"(محمود علي قراعة: الأخلاق في الإسلام من أحاديث الرسول ومن فتاوى ابن تيمية، الحلقة 18 من سلسلة الروح الجامعية، (القاهرة: دار مصر للطباعة، 1964م)، 295).

وقد تابع ابنَ تيمية في قوله هذا تلميذهُ ابن القيم - رحمه الله - حين أكد أن :" أَصْلُ الْعِبَادَةِ: مَحَبَّةُ اللَّهِ، بَلْ إِفْرَادُهُ بِالْمَحَبَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ الْحُبُّ كُلُّهُ لِلَّهِ، فَلَا يُحِبُّ مَعَهُ سِوَاهُ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ لِأَجْلِهِ وَفِيهِ، ....

وَإِذَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ لَهُ هِيَ حَقِيقَةَ عُبُودِيَّتِهِ وَسِرَّهَا، فَهِيَ إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ بِاتِّبَاعِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، فَعِنْدَ اتِّبَاعِ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ"(ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين في منازل (إيّاك نعبد وإيّاك نستعين) تحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي ، 1/ 119).

إذن العبادة لغة هي : الذل والخضوع والطاعة ، فالعبد تعني الذليل الخاضع المطيع الذي لا يملك من نفسه شيئًا ، وبالتالي هو بين يدي شرع الله - تبارك وتعالى - بمثابة الميت بين يدي مغسله ، يقلبه ظهرًا لبطن ؛ فلا يعترض ولا يرفض ويسلم تسليمًا كاملاً ، يقول تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)} [النساء].

أما العبادة في الاصطلاح:

فلأهل العلم في تعريف العبادة كلمات جامعة فمن ذلك:

1 - الْعِبَادَة : مَا تعبد بِهِ بِشَرْط النِّيَّة وَمَعْرِفَة المعبود ، وَيُقَال : تَعْظِيم اللّٰه تَعَالَى بأَمْره ، أو هي: فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختص الرب فهي أخص من العبودية لأنها التذلل. (التوقيف على مهمات التعاريف (498) ، والتعريفات للجرجاني ص (146)).

2 - اسم لما يكون المرء بمباشرته مطيعًا لربه (أصول السرخسي (1/ 83)).

3 - ما أمر به الشارع من غير اطراد عُرفي، ولا اقتضاء عقلي (التحبير شرح التحرير (2/ 1001)).

4 - الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض (التوقيف على مهمات التعاريف ص (498)).

5 - اسم جامع لكل ما يحبه اللّٰه ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة (مجموع الفتاوى (10/ 149)).

6 - قَالَ ابْنُ الأَثير:إن الْعِبَادَةَ قِسمان: نُسُك وورَعٌ، فالنُّسُك مَا أَمَرَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ، والورَعُ مَا نَهَت عَنْهُ، لسان العرب ج9ص 330

يقولُ ابنُ مُفلح في الفِرُوع :الْعِبَادَةُ مَا أُمِرَ بِهِ شَرْعًا مِنْ غَيْرِ اطِّرَادٍ عُرْفِيٍّ وَلَا اقْتِضَاءٍ عَقْلِيٍّ. قِيلَ لِأَبِي الْبَقَاءِ: الْإِسْلَامُ وَالنِّيَّةُ عِبَادَتَانِ وَلَا يَفْتَقِرَانِ إلَى النِّيَّةِ؟ فَقَالَ: الْإِسْلَامُ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ لِصُدُورِهِ مِنْ الْكَافِرِ وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، سَلَّمْنَا، لَكِنْ لِلضَّرُورَةِ، لِأَنَّهُ لَا يَصْدُرُ إلَّا مِنْ كَافِرٍ، وَأَمَّا النِّيَّةُ فَلِقَطْعِ التَّسَلْسُلِ، وَفِي الْخِلَافِ لِأَنَّ مَا كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ فَعِبَادَةٌ، قِيلَ لَهُ: فقَضَاءُ الدينِ وَرَدُ الوَدِيعة عبادةٌ؟[الفروع ج1ص 163].

وَقَالَ شيخ الإسلام : الْعِبَادَة هِيَ: اسْم جَامع لكل مَا يُحِبهُ اللّٰه ويرضاه من الْأَقْوَال والأعمال الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة. فَالصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام وَالْحج وَصدق الحَدِيث وَأَدَاء الْأَمَانَة وبرّ الْوَالِدين وصلَة الْأَرْحَام وَالْوَفَاء بالعهود وَالْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر وَالْجهَاد للْكفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَان للْجَار واليتيم والمسكين وَابْن السَّبِيل والمملوك من الْآدَمِيّين والبهائم وَالدُّعَاء وَالذكر وَالْقِرَاءَة وأمثال ذَلِك من الْعِبَادَة. وَكَذَلِكَ حب اللّٰه وَرَسُوله وخشية اللّٰه والإنابة إِلَيْهِ وإخلاص الدَّين لَهُ وَالصَّبْر لحكمه وَالشُّكْر لنعمه وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ والتوكل عَلَيْهِ والرجاء لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْف من عَذَابه وأمثال ذَلِك هِيَ من الْعِبَادَة لله. **العبودية لابن تيمية ص44تحقيق محمد زهير الشاويش**

وسئل الشيخ العثيمين - رحمه الله - : عن مفهوم العبادة؟

فأجاب بقوله: العبادة لها مفهوم عام، ومفهوم خاص.

فالمفهوم العام: هو " التذلل لله محبة وتعظيمًا بفعل أوامره، واجتناب نواهيه على الوجه الذي جاءت به شرائعه ".

والمفهوم الخاص: يعني تفصيلها. قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية: هي " اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة كالخوف، والخشية، والتوكل، والصلاة، والزكاة، والصيام، وغير ذلك من شرائع الإسلام ".

وقد يكون قصد السائل بمفهوم العبادة ما ذكره بعض العلماء من أن العبادة إمّا عبادة كونية، أو عبادة شرعية، يعني أن الإنسان قد يكون متذللا لله - سبحانه وتعالى - تذللًا كونيًا وتذللًا شرعيًا.

فالعبادة الكونية تشمل المؤمن والكافر، والبر والفاجر لقوله - تعالى -: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} . فكل من في السماوات والأرض فهو خاضع لله - سبحانه وتعالى - كونًا فلا يمكن أبدًا أن يضاد الله أو يعارضه فيما أراد - سبحانه وتعالى - بالإرادة الكونية.

وأما العبادة الشرعية: فهي التذلل له - سبحانه وتعالى - شرعًا فهذه خاصة بالمؤمنين بالله - سبحانه وتعالى - القائمين بأمره، ثم إن منها ما هو خاص أخص كعبودية الرسل، عليهم الصلاة والسلام، مثل قوله - تعالى -: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} وقوله: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} . وقوله: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} . وغير ذلك من وصف الرسل، عليهم الصلاة والسلام، بالعبودية.

والعابدون بالعبودية الكونية لا يثابون عليها؛ لأنهم خاضعون لله - تعالى - شاءوا أم أبوا، فالإنسان يمرض، ويفقر، ويفقد محبوبه من غير أن يكون مريدًا لذلك بل هو كاره لذلك لكن هذا خضوع لله - عز وجل - خضوعًا كونيًا. مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ج1ص89.

ومما سبق نرى أن أفضل ما قيل في العبادة اصطلاحاً قولان :-

الأول : كونها هي ما أمر به الشارع الحكيم بلا اطِّرَادٍ عُرْفِيٍّ وَلَا اقْتِضَاءٍ عَقْلِيٍّ بمعنى أن العرف مثلاً معتبر في الشرع غير حاكم عليه فمن ذلك مثلاً قوله - تعالى - في حق معاملة النساء : { وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[البقرة: 228]،والمعروفُ هُنا ضد المُنكرِ : وهو ما عُرفَ حُسنُهُ شَرعَاً وَعقلاً ، أو ما تعارفَ عليه المؤمنونَ مما أمرَ به الشارعُ الحكيمُ ، يَعني صَارَ عُرفًا بينهم ، فإذا تعارف الناسُ على ما يخالف الشرع ، أو جعلوا ما تعارفوا عليه حاكمًا على الشرع أصبح هذا العرف باطلاً ، ومن ذلك الأحكام العرفية في مجالس العرب وغيرها ؛ التي تخالف شرع الله - تبارك وتعالى - وبنفس الكيفية العقل معتبر في الشرع مطلوب في العبادة ، بل هو مناطها عند التكليف ، لكنه غير حاكم على الشرع أو راد له بمجرد الهوى ، كأن يرد ما ثبت

شرعًا عملا بعدم منطقيته ، أو لا يتوافق مع العقل - حسب زعمهم - كرد حديث أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وهو في البخاري ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ، ثُمَّ لِيَطْرَحْهُ، فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً، وَفِي الآخَرِ دَاءً» قال الألباني - رحمه الله - في الصحيحة: قد ثبت الحديث بهذه الأسانيد الصحيحة عن هؤلاء الصحابة الثلاثة: أبي هريرة , وأبي سعيد , وأنس، ثبوتًا لا مجال لردِّه ولا للتشكيك فيه , كما ثبت صِدْقُ أبي هريرة - رضي الله عنه - في روايته إياه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.... إلى أن قال : وأن الطاعنَ فيه هو الحقيق بالطعن فيه، لأنهم رموا صحابيًّا بالبَهْت، وردُّوا حديثَ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لِمجرد عدم انطباقه على عقولهم المريضة! سلسلة الأحاديث الصحيحة ج1ص 96.

-

والثاني : التَعريفِ الجامعِ المانع لشيخِ الإسلام اِبنِ تَيمية وَهُو أنَّ العِبَادةَ : اسْمٌ جَامعٌ لكلِّ مَا يُحبهُ الله ويرضاهُ من الْأَقْوَال وَالأعمالَ الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة.

أشياء من الواجب أن تكون عالمًا بها وهي تخص العبادة .

أولاً : العبادة توقيفية ، بينما العادة الأصل فيها الإباحة.

ثانياً : العبادة لا تدخل صاحبها الجنة بنفسها . وهذا لا يعني أن الأعمال ليس لها قيمة ولا تأثير في دخول الجنة، وإلا فقد قال الله تعالى: { وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }[الزخرف:72]. وقال: {جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الواقعة: 24]. ونظائر هذا كثيرة.

والجمع بين هذه الآيات والحديث أن الجنة ليست عوضا للعمل، ولكن العمل سبب لدخول الجنة، وإنما يدخلها من يدخلها برحمة الله إذا أخذ بالسبب الذي جعله الله سببا لدخولها، فإن رحمة الله لا ينالها إلا من اجتهد في طاعة الله وأحسن العمل، كما قال تعالى: { إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف:56]. وقال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[البقرة:218].

فعلى العبد أن يقف في مواطن رحمة الله - تعالى - مجتهدا في العمل الصالح غير راكن إلى هذا العمل عالما أنه إنما يدخل الجنة ويستحق المثوبة بفضل الله ومنته.

يقول ابن تيمية - رحمه الله - : [فَالْعَمَلُ لَا يُقَابِلُ الْجَزَاءَ وَإِنْ كَانَ سَبَبًا لِلْجَزَاءِ؛ وَلِهَذَا مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ قَامَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إلَى مَغْفِرَةِ الرَّبِّ - تَعَالَى - وَعَفْوِهِ فَهُوَ ضَالٌّ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ وَلَا أَنَا إلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةِ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَرُوِيَ بِمَغْفِرَتِهِ»] انظر مجموع الفتاوى ج 1 ص 217.

إذن الجنة شيء عظيم، لا يمكن أن يناله المرء بأعماله التي عملها، وإنما تنال برحمة الله

وفضله، وكما بينا في حديث أبي هريرة t عند مسلم في (صحيحه) قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ما مِن أحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الجَنَّةَ ، فقِيلَ: ولا أنْتَ ، يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ولا أنا، إلّا أنْ يَتَغَمَّدَنِي رَبِّي برَحْمَةٍ». وقد يشكل على هذا النصوص التي تشعر بأن الجنة ثمن للعمل، كقوله تعالى: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }[السجدة: 17]، وقوله:{ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }[الأعراف: 43]. ولا تعارض بين الآيات وما دل عليه الحديث، فإن الآيات تدل على أن الأعمال سبب لدخول الجنة، وليست ثمناً لها. والحديث نفى أن تكون الأعمال ثمناً للجنة. وقد ضل في هذا فرقتان: الجبرية التي استدلت بالحديث على أن الجزاء غير مرتب على الأعمال، لأنه لا صنع للعبد في عمله، والقدرية استدلوا بالآيات، وقالوا: إنها تدل على أن الجنة ثمن للعمل، وأن العبد مستحق دخول الجنة على ربه بعمله.

يقول شارح الطحاوية في هذه المسالة: "وَأَمَّا تَرَتُّبُ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، فَقَدْ ضَلَّتْ فِيهِ الْجَبْرِيَّةُ وَالْقَدَرِيَّةُ، وَهَدَى اللَّهُ أَهْلَ السُّنَّةِ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. فَإِنَّ الْبَاءَ الَّتِي فِي النَّفْيِ غَيْرُ الْبَاءِ الَّتِي فِي الْإِثْبَاتِ، فَالْمَنْفِيُّ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» بَاءُ الْعِوَضِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ كَالثَّمَنِ لِدُخُولِ الرَّجُلِ إِلَى الْجَنَّةِ، كَمَا زَعَمَتِ الْمُعْتَزِلَةُ أَنَّ الْعَامِلَ مُسْتَحِقٌّ دُخُولَ الْجَنَّةِ عَلَى رَبِّهِ بِعَمَلِهِ! بَلْ ذَلِكَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ. وَالْبَاءُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: 17] وَنَحْوُهَا، بَاءُ السَّبَبِ، أَيْ بِسَبَبِ عَمَلِكُمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ، فَرَجَعَ الْكُلُّ إِلَى مَحْضِ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ. انظر شرح الطحاوية للأذرعي الصالحي الدمشقي تحقيق شعيب الأرنؤوط ،و عبد الله بن المحسن التركي ط الرسالة 1417هـ - 1997م.

ثالثاً : العبادة ليست كالرزق ، فليست مضمونة لك أبداً.

رابعاً: لم تخلق إلا لأجل العبادة فالحكمة من الخلق العبادة ولكن لا يشترط أن الجميع عباد.

خامساً: العبادة لا يعرف قيمتها إلا من تعامل معها وذاق لذتها ، والعادة لا يعرف قيمتها إلا من فقدها.

حاجة الناس إلى العبادة:

حاجة الناس إلى العبادة متعلقة بأن العبد مفطور على حب الله وعبادته واللجوء إليه، ولهذا قال-صلى الله عليه وسلم-: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ» البخاري 1385، فالأصل أن الناس مفطورون على حب الله وعبادته {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (30) سورة الروم.

وكذا يتضح لنا حاجةُ الناسِ إليها من خلال تكوين العبد الخلقي، فهو مكون من جسد وروح، فالجسد يحتاج إلى التغذيَة المستمرة، وغذاؤه الأكل والشرب ، والروح لا بدَّ لها من غذاء، وغذاء الروح هو الغذاء الإلهي التعبدي، ولهذا لما كان الجسد من الطين الدال على السفل والدنو والثقل، كان غذاؤه من الأسفل ومن الطين، ولما كانت الروح من أمر الله ومن روحه كان

الغذاء لا بد أن يأتي من علو من عند الله -تعالى- فإذا اجتمع الأمران وامتزجا في بدن العبد حصلت الصحة والاعتدال والراحة في الإنسان، وإذا اختل الغذاء الروحي الإيماني تكدرت الحياة، وأصبحت جحيماً لا يطاق!! وإذا ارتفع الغذاء الروحي وبلغ ذروته فإن قلة أو ضعف الغذاء الجسدي يعوضه ذلك الغذاء الروحي.. ومن هذا يتضح لنا السبب في كون النبي -صلى الله عليه وسلم- يمسك عن الأكل ويواصل صيامه يومان فأكثر، ولما سأله الصحابة عن ذلك قال: « وَأَيُّكُمْ مِثْلِي؟ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي » رواه مسلم, ولهذا كان كثير من العارفين بالله يصومون جل أيام عمرهم، ولا يأكلون إلا قليلاً، ومع هذا يجدون من لذة الذكر والقرآن لذة لا تقارنها لذة أصلاً!! فقلة الغذاء الجسدي ناب عنه الغذاء الروحي الإلهي، لكن المشكلة عندما يضعف أو يعدم الغذاء الروحي الإلهي فإن الحياة تتكدر على العبد، بقدر ما نقص من ذلك الغذاء العظيم. فعلى قدر قوة ذلك الغذاء الإلهي في قلب العبد وجسمه توجد السعادة والحياة الطيبة، فلو ضعف ذلك الزاد تكدرت الحياة بقدر الضعف.. فتجد العبد تصيبه الهموم والمشاكل النفسية.. والناس درجات ودركات في ذلك، فمنهم من يصيبه الهم والغم ولكنه يتذكر لذلك؛ فإذا استخدم من الغذاء الروحي حظه ونصيبه رفع عنه ذلك الهم والغم، ولهذا أرشد النبي-صلى الله عليه وسلم- من أصابه الهم والغم والكرب أن يذكر الله، وهو بهذا يستخدم السلاح الإلهي لدفع الهم والغم- فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: (مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا) فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: "بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا"رواه أحمد وأبو حاتم وصححه الألباني.

ومن الناس من يصيبه الهم والغم فلا يتذكر ولا يتفكر في سببه، فيعالجه باللجوء إلى من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً! فيزداد الأمر سوءً، حيث يذهب العبد إلى أطباء الأمراض النفسية - مع أنه لا حرج في ذلك من حيث العموم - لكنه لو رجع إلى بارئه، ومن لا غنى له طرفة عين عن رحمته من أول الأمر لاستدرك ما فاته من خير اللجوء والأوبة والتوبة.. وعلى هذا الأساس فليعلم كل عبد رزقه الله الفقه والفهم في أمور دينه: أن كل ما يصيب الناس من مشاكل وقلق وهموم، سببها نقص في هذا الأصل إما نقص جزئي أو كلي حيث يصبح العبد كالبهيمة، فعليه أن يعالج هموم نفسه بالرجوع إلى الله، وتحقيق ما اختل من العبادة التي هو محتاج إليها كل حين.. ولهذا صدق الله العظيم القائل:{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} (124) سورة طه, والقائل:{فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}(125) سورة الأنعام, وهذا دليل عن ضيق النفس وتكدر الحياة..

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- حاجة العبد إلى عبادة الله فقال: "وَاعْلَمْ أَنَّ فَقْرَ الْعَبْدِ إلَى اللَّهِ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ فَيُقَاسُ بِهِ ؛ لَكِنْ يُشْبِهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ حَاجَةَ الْجَسَدِ إلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ؛ وَبَيْنَهُمَا فُرُوقٌ كَثِيرَةٌ . فَإِنَّ حَقِيقَةَ الْعَبْدِ قَلْبُهُ وَرُوحُهُ ، وَهِيَ لَا صَلَاحَ لَهَا إلَّا بِإِلَهِهَا اللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ : فَلَا تَطْمَئِنُّ فِي الدُّنْيَا إلَّا بِذِكْرِهِ " ثم شرع ابن تيمية - رحمه الله - يبين سبب ذلك اللجوء والاحتياج إلى عبادة الله وطاعته، وقد ذكر

ذلك في عدة وجوه وأسباب فقال:

أَحَدُهَا : عَلَى أَنَّ نَفْسَ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَعِبَادَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ وَإِجْلَالَهُ هُوَ غِذَاءُ الْإِنْسَانِ وَقُوتُهُ وَصَلَاحُهُ وَقِوَامُهُ كَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ ، وَكَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ؛ لَا كَمَا يَقُولُ مَنْ يَعْتَقِدُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَنَحْوِهِمْ : أَنَّ عِبَادَتَهُ تَكْلِيفٌ وَمَشَقَّةٌ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا } ، قالَ :" أَيْ وَإِنْ وَقَعَ فِي الْأَمْرِ تَكْلِيفٌ ؛ فَلَا يُكَلَّفُ إلَّا قَدْرَ الْوُسْعِ . لَا أَنَّهُ يُسَمِّي جَمِيعَ الشَّرِيعَةِ تَكْلِيفًا ، مَعَ أَنَّ غَالِبَهَا قُرَّةُ الْعُيُونِ وَسُرُورُ الْقُلُوبِ ؛ وَلَذَّاتُ الْأَرْوَاحِ وَكَمَالُ النَّعِيمِ". مجموع الفتاوى ج1ص24.

الْأَصْلُ الثَّانِي : النَّعِيمُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَيْضًا - أي بالله وبعبادته- مِثْلُ النَّظَرِ إلَيْهِ ....، كَمَا فِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: "اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك لَذَّةَ النَّظَرِ إلَى وَجْهِك ، وَالشَّوْقَ إلَى لِقَائِك فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ " . رَوَاهُ النَّسَائِي وَغَيْرُهُ وَهوفِي صَحِيحِ " مُسْلِمٍ " وَغَيْرِهِ عَنْ " صهيب " عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "إذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نَادَى مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ؛ إنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ ينجزكموه . فَيَقُولُونَ : مَا هُوَ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ ، وَيُجِرْنَا مِنْ النَّارِ قَالَ : فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ ؛ فَيَنْظُرُونَ إلَيْهِ - سُبْحَانَهُ . فَمَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إلَيْهِ ، وَهُوَ الزِّيَادَةُ " .

والمقصود بالزيادة ما ذكر في قوله-تعالى-:{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}، ثم قال ابن تيمية:" فَبَيَّنَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُمْ مَعَ كَمَالِ تَنَعُّمِهِمْ بِمَا أَعْطَاهُمْ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ لَمْ يُعْطِهِمْ شَيْئًا أَحَبَّ إلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إلَيْهِ ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ أَحَبَّ إلَيْهِمْ لِأَنَّ تَنَعُّمَهُمْ وَتَلَذُّذَهُمْ بِهِ أَعْظَمُ مِنْ التَّنَعُّمِ وَالتَّلَذُّذِ بِغَيْرِهِ" .المصدر السابق.

ثم ذكر أن هذين أَصْلَانِ ثَابِتَانِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ وَعَلَيْهِمَا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ قاطبة..
والمقصود أن العبد محتاج إلى عبادة الله والقرب منه، والاستئناس بجواره- عز وجل- فمن فقد ذلك شقي، وهو الضنك المذكور في قوله:{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ : أَنَّ الْمَخْلُوقَ لَيْسَ عِنْدَهُ لِلْعَبْدِ نَفْعٌ وَلَا ضَرَرٌ ؛ وَلَا عَطَاءٌ وَلَا مَنْعٌ ؛ وَلَا هُدًى وَلَا ضَلَالٌ ؛ وَلَا نَصْرٌ وَلَا خِذْلَانٌ ؛ وَلَا خَفْضٌ وَلَا رَفْعٌ ؛ وَلَا عِزٌّ وَلَا ذُلٌّ ؛ بَلْ رَبُّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ وَرَزَقَهُ ؛ وَبَصَّرَهُ وَهَدَاهُ وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ نِعَمَهُ ؛ فَإِذَا مَسَّهُ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا يَكْشِفُهُ عَنْهُ غَيْرُهُ ؛ وَإِذَا أَصَابَهُ بِنِعْمَةٍ لَمْ يَرْفَعْهَا عَنْهُ سِوَاهُ ؛ وَأَمَّا الْعَبْدُ فَلَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَضُرُّهُ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ....؛ فَهَذَا الْوَجْهُ يَقْتَضِي ؛ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ . وَدُعَاءَهُ . وَمَسْأَلَتَهُ ، دُونَ مَا سِوَاهُ. انتهى كلامه. المصدر السابق ج1ص27.

وخلاصة القول هنا: أن الله خالق العبد والمتصرف في أموره، فالحاجة تجعل العبد يرجع إلى الله، وينيب إليه في كثير من مشاكل الحياة، حتى أنك لترى كثيراً من الناس إذا أصيبوا بكارثة رفعوا أيديهم إلى الله - عز وجل - حتى أني سمعت قصة عجيبة عن رجل روسي وكان يتدرب على القفز المظلي (من الطائرة) فلما قفز من الطائرة لم تنفتح المظلة وهو يهوي في السماء وهي مغلقة، فدعا بلغته: يا الله! فانفتحت ونزل إلى الأرض بسلام، فهذا مع بعده عن الله، وكفره بآيات الله قبل ذلك في دولة اشتراكية ملحدة، لما ضاقت السبل وانقطعت

الأسباب البشرية الضعيفة التي تشبه خيوط العنكبوت في الهوان نادى: يا الله! اتجهت الفطرة إلى الله - سبحانه وتعالى- وهكذا فالعبد مجبول على عبادة الله، وحبه، ودعائه، ولكن كما جاء في الحديث القدسي: (وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا..) رواه مسلم.

ثم قال ابن تيمية -رحمه الله-:الْوَجْهُ الرَّابِعُ: إنَّ تَعَلُّقَ الْعَبْدِ بِمَا سِوَى اللَّهِ مَضَرَّةٌ عَلَيْهِ؛ إذَا أَخَذَ مِنْهُ الْقَدْرَ الزَّائِدَ عَلَى حَاجَتِهِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ إنْ نَالَ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَوْقَ حَاجَتِهِ، ضَرَّهُ وَأَهْلَكَهُ، وَكَذَلِكَ مِنْ النِّكَاحِ وَاللِّبَاسِ . انتهى كلامه..

يقول حاجة العبد إلى المخلوق قليلة وآنية، وحاجته إلى عبادة الله وطاعته دائمة، كما في الحديث: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: " أَتَانِي جِبْرِيلُ - عليه السلام - فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ , فَإِنَّكَ مَيِّتٌ , وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ , فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ , فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ , وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ " رواه الطبراني وحسنه الألباني.

ثم قال : الْوَجْهُ الْخَامِسُ: أَنَّ اعْتِمَادَهُ عَلَى الْمَخْلُوقِ وَتَوَكُّلَهُ عَلَيْهِ يُوجِبُ الضَّرَرَ؛ مَا عَلَّقَ الْعَبْدُ رَجَاءَهُ وَتَوَكُّلَهُ بِغَيْرِ اللَّهِ إلَّا خَابَ ، وَلَا اسْتَنْصَرَ بِغَيْرِ اللَّهِ إلَّا خُذِلَ.

ونحن نجد هذا واقعياً.. فرحم الله ابن تيمية على إبراز هذا المعنى، حيث نجد كثيراً من الذين كان لهم العباد نصراء ووزراء أول من يخذلونهم.. . فسبحان الله ما أعظم وما أعزّ من استنصر به ولجأ إليه، وما أسرع خذلان من اعتز وعبد ولجأ إلى غيره!.

الْوَجْهُ السَّادِسُ: إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ. حَمِيدٌ. كَرِيم. وَاجِدٌ. رَحِيمٌ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مُحْسِنٌ إلَى عَبْدِهِ مَعَ غِنَاهُ عَنْهُ، يُرِيدُ بِهِ الْخَيْرَ وَيَكْشِفُ عَنْهُ الضُّرَّ، لَا لِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ إلَيْهِ مِنْ الْعَبْدِ، وَلَا لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ؛ بَلْ رَحْمَةً وَإِحْسَانًا، وَالْعِبَادُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَعْمَلُوا إلَّا لِحُظُوظِهِمْ... إذَا لَمْ يَكُنْ الْعَمَلُ لِلَّهِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ أَحَبَّ إنْسَانًا لِشَجَاعَتِهِ أَوْ رِيَاسَتِهِ، أَوْ جَمَالِهِ أَوْ كَرَمِهِ، فَهُوَ يَجِبُ أَنْ يَنَالَ حَظَّهُ مِنْ تِلْكَ الْمَحَبَّةِ، وَلَوْلَا الْتِذَاذُهُ بِهَا لَمَا أَحَبَّهُ.

إذَا تَبَيَّنَ هَذَا ظَهَرَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَقْصِدُ مَنْفَعَتَكَ. بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ، بَلْ إنَّمَا يَقْصِد مَنْفَعَتَهُ بِكَ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ عَلَيْكَ فِيهِ ضَرَرٌ إذَا لَمْ يُرَاعِ الْعَدْلَ، فَإِذَا دَعَوْتَهُ، فَقَدْ دَعَوْتَ مَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مَنْ نَفْعِهِ. وَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ لَكَ - أي ما ينفعك - ، لَا لِيَنْتَفِعَ بِك. و في ذَلِكَ مَنْفَعَةٌ لَكَ بِلَا مَضَرَّةٍ. فَتَدَبَّرْ هَذَا..!

الْوَجْهُ السَّابِعُ: أَنَّ غَالِبَ الْخَلْقِ يَطْلُبُونَ إدْرَاكَ حَاجَاتِهِمْ بِكَ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيْك، فَإِنَّ صَاحِبَ الْحَاجَةِ أَعْمَى لَا يَعْرِفُ إلَّا قَضَاءَهَا.

الْوَجْهُ الثَّامِنُ: إنَّهُ إذَا أَصَابَكَ مَضَرَّةٌ كَالْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَالْمَرَضِ، فَإِنَّ الْخَلْقَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِهَا إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا يَقْصِدُونَ دَفْعَهَا إلَّا لِغَرَضِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ.

الوَجْهُ التاسِعُ: أنّ الخلق لوْ اجْتهَدُوا أنْ يَنفعُوك لمْ يَنفعُوك إلا بأمْرٍ قدْ كتبَهُ اللهُ لك، وَلَوْ اجْتَهَدُوا أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إلَّا بِأَمْرٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ. فَهُمْ لَا يَنْفَعُونَكَ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. وَلَا يَضُرُّونَكَ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. فَلَا تُعَلِّقْ بِهِمْ رَجَاءَكَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ}[الملك : 20] انتهى.

فهذه الوجوه والأسباب وغيرها اقتضت أن يكون العبد محتاجاً إلى الله: أُنساً به، وقرباً منه، ورجوعاً إليه وعبادة له -عز وجل-.

يقول الشيخ صالح الفوزان : إن العبادة التي شرعها الله - سبحانه وتعالى - تنبني على أصول وأسس ثابته تتلخص فيما يلي:

أولاً: أنها توقيفية . بمعنى أنه لا مجال للرأي فيها بل لابد أن يكون المشرع لها هو الله - سبحانه وتعالى- أو رسول الله، كما قال - تعالى- لنبيه:{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا} [هود:112]، وقال - تعالى -:{ ثُمّ جَعَلنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأمرِ فاتّبِعها ولا تَتّبعِ أهَواءَ الذينَ لا يَعلمُون } [الجاثية:18]. وقال عن نبيه: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ} [الأنعام:50].

ثانياً: لا بد أن تكون العبادة خالصة لله - تعالى - من شوائب الشرك، كما قال - تعالى -:{ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً} [الكهف:110].

ثالثاً: لا بد أن يكون القدوة في العبادة والمبين لها رسول الله كما قال -تعالى-: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}[الأحزاب:20]، وقال - تعالى -: {ومَاءَ اتاكُمُ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وما نَهاكُم عَنهُ فانتَهُوا} [الحشر:7]. وقال النبي $: « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » [مسلم]. وقوله: «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» [البخاري ومسلم]. وقوله: « خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ »[أخرجه النسائي (5/270 ، رقم 3062)] إلى غير ذلك من النصوص الدالة على وجوب الاقتداء برسول الله دون سواه.

رابعاً: أن العبادة محدودة بمواقيت ومقادير لا يجوز تعديها وتجاوزها كالصلاة مثلاً، قال - تعالى -: {إن الصّلاةَ كانَت على المُؤمِنِينَ كِتاباً مَوقُوتا} [النساء:103]. وكالحج، قال - تعالى -: {الحَجُ أشهُرٌ مَعلومَاتٌ} [البقرة:197]. وكالصوم، قال - تعالى -: {شَهرُ رمَضَانَ الّذي أنزلَ فيهِ القُرءَانُ هُدًى للنّاسِ وبَيناتٍ مِنَ الهُدى والفُرقان فَمنَ شَهدَ مِنكُمُ الشَهرَ فليَصُمهُ} [البقرة:185]. فلا تصح هذه العبادات في غير مواقيتها.

خامساً: لابد أن تكون العبادة قائمة على محبة الله - تعالى - والذل له، وخوفه ورجائه، قال - تعالى -: {أولئِكَ الّذِينَ يَدعُونَ يَبتَغُونَ إلى رَبِهِمُ الوَسِيلَةَ أيّهُم أقرَبُ وَيَرجُونَ رَحمَتَهُ ويَخافُونَ عَذابَهُ} [الإسراء:57]. وقال - تعالى- عن أنبيائه: {إنّهُم كَانُوا يُسَارِعُونَ في الخَيَراتِ ويَدعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وكانُوا لنا خَاشِعِينَ} [الأنبياء:90]. وقال - تعالى-: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران:32،31].

فإن خالط العبادة شيء من الشرك أبطلها، كما قال - تعالى -: {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأنعام:88]، وقال - تعالى -: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِّنْ الشَّاكِرِينَ}[الزمر:65،66].

فذكر سبحانه علامات محبة الله وثمراتها.

أما علاماتها: فإتباع الرسول وطاعة الله، وطاعة الرسول.

أما ثمراتها: فنيل محبة الله - سبحانه - ومغفرة الذنوب، والرحمة منه - سبحانه وتعالى -.

سادساً: أن العبادة لا تسقط عن المكلف من بلوغه عاقلاً إلى وفاته، قال - تعالى-: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ }[آل عمران:102]، وقال: {واعَبدَ ربَكَ حتَى يأتِيك اليَقِين}[الحجر:99].

والعجب أن بعضهم يأتي ببعض النوافل أو كثير منها، وهو مضيع للصلاة فتراه يحج ويعتمر وهو مضيع للصلاة، ومنهم من يكثر من الصدقات والتبرعات وهو لا يؤدي الزكاة المفروضة، ومنهم من يحسن أخلاقه مع الناس وهو عاق لوالديه قاطع لرحمه سيء الخلق مع زوجه، ولاشك أن العدل في الرعية من الفرائض الواجبة سواء كانت رعيته رعية عامة كالحاكم أو رعية خاصة كالرجل مع أهل بيته، قال $: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) ، وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي$ قال: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا» صحيح مسلم ١٨٢٧.

كما لابد للعبادة أن تبقى على أصلها ولا تتحول إلى العادة ؛ لأن حقيقة الإيمان التي أُمرنا بها أن تتواطأ عبادة القلب مع عبادة الجوارح، فتتحقق عبودية القلب مع عبودية الجوارح، فنحسن العبادة باطناً كما نحسنها ظاهراً.

إذا تبينت أهمية ما تقدم، فلسائل أن يسأل ما هي الوسائل التي تقود إلى إحسان العبادة باطناً، أو بعبارة أخرى: كيف نبعث الروح في عبادتنا، ونجنبها الموت؟

الوسائل كثيرة ومتنوعة، ولكن حسبي أن أشير إلى بعضها:

1- حضور القلب قبل أو عند البدء بالعبادة: والفقهاء يتحدثون عن النية قبل الشروع في العمل ويعنون بها النية التي تميز العمل نفسه، كصلاة الظهر عن صلاة العصر، وصوم النافلة عن صوم الفرض.. وما إلى ذلك، ويتحدث أرباب التوحيد وأهل السلوك عن النية التي تميز المعمول له، وهو المقصود بهذه العبادة.

2- تحديث القلب وتذكيره بالتعبد لله (عز وجل): سواء أكان ذلك خارج العبادة أو حتى في أثنائها إن أمكن، وليس هذا مجال الحديث عن عبودية القلب لله رب العالمين، وكثير من الناس ـ بل ومن بعض طلاب العلم وغيرهم من أهل الخير ـ يغفلون عن هذا كثيراً، وهذا التحديث والتذكير نهر يمد القلب باللين والرقة والخشوع، فإذا شح ماؤه جف القلب ويبس ثم قسا، نعوذ بالله من ذلك.

3- التهيؤ للعبادة والاستعداد لها: والمثال الذي يوضح هذا وأثره: التبكير إلى المساجد لأداء الصلاة، وهذا التهيؤ المادي الجسدي يصاحبه ولا شك تهيؤ نفسي وروحي وقلبي، وفي حث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على التبكير إلى المساجد خير دليل على ذلك، والأحاديث كثيرة مشهورة.

ومن هنا نفهم كثرة ما ورد عن السلف الصالح في هذا الشأن، فهذا إبراهيم بن يزيد الفقيه عابد الكوفة يقول: (إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه)(انظر: سير أعلام النبلاء).

والتهيؤ يكون بحسب كل عبادة وما شرع فيها.

والحج كذلك له تهيؤ؛ فرد الأمانات والمظالم، والتخلص من الحقوق قبل الشروع في السفر كلها صور للاستعداد لهذه العبادة العظيمة، وكذلك تهيئة الزاد والراحلة والرفقة الصالحة.

والمتأمل في ذلك يجد الفرق شاسعاً بين من يؤدي العبادة دون استعداد بدني يصحبه تهيؤ قلبي ومن يأتي الصلاة مسرعاً حتى يدرك الركعة فيدخل في الصلاة ولم يسكن جسده من ذلك السعي، ولعل في نهي الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن السعي بعد الإقامة إشارة إلى ذلك، وإلى أن يتفاعل الإنسان روحيّاً ونفسيّاً مع هذه العبادة تكون الصلاة أوشكت على النهاية.

4- الابتعاد عما يشوش القلب أثناء العبادة: ففي الصلاة مثلاً: نهى الرسول -صلى الله عليه وسلم- المصلي أن يصلي إلى مايشغله أثناء الصلاة « فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ شَيْءٌ يَشْغَلُ الْمُصَلِّيَ » (انظر: صحيح الجامع، ح2500).

ولهذا جاء النهي عن أن يصلي الإنسان في حضرة طعام أو وهو يدافع الأخبثين، كل هذا من أجل أن ينخلع القلب من علائق الدنيا وينجذب إلى حقيقة العبادة ويجتمع في قلب العبد وفكره ووجدانه الاتجاه إلى الله (تعالى)، ومثل هذه الأمور يمكن فعلها في عبادات أخرى. ليكون أدعى لانشغاله وتفرغه للعبادة، مما يؤدي لتفرغ قلب الإنسان للتوجه وللعبودية لله (عز وجل) أثناء الصوم.

5- المشاهد أن كثيراً من الناس يؤدي بعض العبادات بصورة تلقائية أقرب إلى الحركة الميكانيكية، فمثلا في الصلاة: ترى كثيراً منهم يدخل في صلاة النافلة فيقرأ دعاء الاستفتاح الذي يجري على لسانه، ومن ثم سورة الفاتحة، ثم تجري على لسانه إحدى السور الصغار التي يحفظها على ظهر القلب، وربما إذا سألته بعد صلاته ماذا قرأ، فإنه لا يذكر.

ولاتفكر الأغلبية العظمى من الناس مثلا في قراءة صيغة أخرى لدعاء الاستفتاح، أو في قراءة آيات أو سور من غير تلك السور التي تجري على ألسنتهم دون أن يتفكروا فيها أو يشعروا بها، مع أن السنة وردت بالتنويع في هذه الأذكار، فهناك عدة صيغ لدعاء الاستفتاح، والرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ من القرآن كله في تطوعه.

وهكذا في أذكار الصباح والمساء وغيرها من الأذكار والعبادات الدورية التي وردت السنة

بهيئات وصيغ متعددة لها.

إن التنويع في صفات العبادة بما يوافق السنة الصحيحة له أثر في طرد ما قد يطرأ على العبادة من صفة العادة والرتابة التي تضعف تأثير العبادة على القلب.من مقال في مجلة البيان لهيثم الحداد.

روي عن مالك بن دينار- رحمه اللّٰه - أنه كان يوماً ماشياً في أزقة البصرة، فإذا هو بجارية من جواري الملوك راكبة ومعها الخدم، فلما رآها مالك نادى :أيتها الجارية ، أيبيعك مَوْلاكِ؟

قالت: كيف قلت يا شيخ؟

قال: أيبيعك مولاكِ؟

قالت: ولوْ باعني كان مثلك يشتريني؟

قال: نعم، وخيراً منك، فضحكت وأمرت أن يُحمل إلى دارها، فحُمل، فدخلت إلى مولاها فأخبرته فضحك وأمر به أن يُدخل إليه، فدخل، فأُلْقيت له الهيْبة في قلب السيد، فقال: ما حاجتك؟

قال: بِعني جاريتك.

قال: أو تُطيق أداء ثمنها؟

قال: فثمنها عندي نوَاتان مسوّستان، فضحكوا، وقالوا: كيف كان ثمنها عندك هذا؟

قال: لكثرة عيوبها.

قالوا: وما عيوبها؟

قال: إن لم تتعطّر زفرت، وإن لم تسْتك بخرت، وإن لم تمتشط وتدّهن قمِلتْ وشعثتْ، وإن تُعَمّر عن قليل هرِمتْ، ذات حيض وبول وأقذار جمّة.ولعلّها لا تودّك إلا لنفسها ولا تحبك إلا لشغفها بك. لا تَفي بعهدك ولا تصدق في وُدِّك، ولا يخلف عليها أحد بعدك إلا رأته مثلك.

وأنا آخذ بدون ما سألت في جاريتك من الثمن جارية خُلقت من سلالة الكافور، لو مُزج بريقها أُجاج لطاب، ولو بدا معصمها للشمس لأظلمت دونه، ولوْ بدا في الليل لسطع نوره، ولو واجهت الآفاق بحليّها وحللها لتزخرفت، نشأت بين رياض المسك والزعفران، وقُصرت في أكنان النعيم، وغُذّيت بماء التسنيم، فلا تخلف عهدها، ولا يتبدّل وُدّها فأيهما أحقّ برفعة الثمن؟

قال: التي وصفت.

قال: فإنها الموجودة الثمن القريبة المخطب.

قال: فما ثمنها رحمك الله؟

قال: اليسير المبذول، أن تفرّغ ساعة في ليلك فتصلي ركعتين تخلصهما لربك، وأن يوضع طعامك فتذكر جائعك فتؤثر الله على شهوتك، وأن تقطع أيامك بالبُلغة، وترفع همتك عن دار الغفلة، فتعيش في الدنيا بعز القنوع، وتأتي غداً إلى موقف الكرامة آمناً، وتنزل غداً في الجنة مخلّدًا.

فقال الرجل: يا جارية أسمعتِ ما قال شيخنا هذا؟

قالت: نعم.

قال: أفصدق أم كذب؟

قالت: بل صدق وبرّ ونصح.

قال: فأنت إذاً حرة لوجه الله، وضيْعة كذا وكذا صدقة عليك، وأنتم أيها الخدام أحرار، وضيْعة كذا وكذا لكم، وهذه الدار بما فيها صدقة مع جميع مالي في سبيل الله، ثم مَدّ يده إلى ستر خشن كان على بعض أبوابه فاجتذبه وخلع جميع ما كان عليه واستتر به.

قالت الجارية: لا عيش لي بعدك يا مولاي، فَرَمَتْ بكسوتها ولبست ثوباً خشناً وخرجت معه ، فودعهما مالك ودعا لهما، وأخذ طريقاً وأخذا غيره، فتعبّدا جميعاً حتى جاء الموت فنقلهما على حال العبادة رحمة الله عليهما.انظر كتاب التوابين لابن قدامة المقدسي ص 93.

قال أحد السلف : " الهوى لايترك العبودية تصفو ، وما لم يشتغل السالك بأضعاف هذا العدو الذي بين جنبيه لا يصح له قدم ، ولو أتى بأعمال تسد الخافقين . والرجل كل الرجل من داوى الأمراض من خارج ، وشرع في قلع أصولها من الباطن ، حتى يصفو وقته ، ويطيب ذكره ، ويدوم أنسه "

ولذلك كان السلف الصالح يجدون من لذة التعبد مالا يكافؤه لذة الدنيا بأسرها .

يقول النابلسي : لو أن إنسانا سمع أذان الفجر، وما صلى، عندما يستيقظ يشعر بكآبة وانقباض،لكن جسمه مرتاح، لأنه شبع من النوم،أما لو قام وصلى، ورجع فنام يستيقظ الساعة التاسعة براحة نفسية لا توصف، لأنه صلى الفجر في وقته.

إذاً: الطبع أقرب إلى الجسم، والتكليف أقرب إلى النفس،الطبع أن تبقى نائماً، والتكليف أن تستيقظ،الطبع أن تأخذ المال،والتكليف أن تعطيه،الطبع أن تملأ عينيك من محاسن النساء، والتكليف أن تغض البصر، الطبع أن تخوض في فضائح الناس، والتكليف أن تسكت،فالطبع يتناقض مع التكليف.

عندما يكون الأمر بيده، ويقدر أن يأخذ مبلغا فلكيا دون أن يعلم أحد، ثم يأخذه،فإنه يمكن أن يشتري سيارة به، ويمكن أن يغير بيته،لكن يشعر بكآبة لأنه أكل مالا حراما، واعتدى على حقوق

غيره،

أو لم يقسم هذه التركة بالعدل،أما لما يؤدي الحقوق لأصحابها تماماً يشعر براحة نفسية، فصار التكليف أقرب إلى الفطرة، والطبع أقرب إلى الجسم.

ومن تناقض الطبع مع التكليف يكون ثمن الجنة. قال الله تعالى : {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى }والله لا يمتحن عباده جميعاً بقضايا مهمة، قد تكون صفقة رابحة، لكن فيها شبهة، حينما تتركها تتخذ قرارا بطوليًّا، والله بعد حين يعوض عليك أضعافاً مضاعفة لكن امتحنك بامتحان صعب البطولة أن تنجح بامتحان الله لا.

إذا أديت ما عليك من تكاليف ترتاح نفسك، وتشعر أن الله راض عنك، وأن الله يحبك،أما إذا لبيت حاجة الجسد بخلاف منهج الله عز وجل تشعر بالكآبة.

قال مالك بن دينار - رحمه الله - وغيره : مَسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا، قَالُوا: وَمَا أَطْيَبُ مَا فِيهَا؟ قَالَ: مَحَبَّةُ اللَّهِ، وَالْأُنْسُ بِهِ، وَالشَّوْقُ إِلَى لِقَائِهِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَالْإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهُ أَوْ نَحْوُ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ. مدارج السالكين ج1ص 452

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَاصِمٍ الْأَنْطَاكِيُّ: أُحِبُّ أَنْ لَا أَمُوتَ حَتَّى أَعْرِفَ مَوْلَايَ، وَلَيْسَ مَعْرِفَتُهُ الْإِقْرَارَ بِهِ، وَلَكِنَّ الْمَعْرِفَةَ إِذَا عَرَّفْتَهُ اسْتَحْيَيْتَ مِنْهُ. جامع العلوم والحكم لابن رجب ص 473

يقول ابن رجب الحنبلي : فإنَّ اللَّهَ ضمِنَ لأهلِ الطاعةِ الحياةَ الطيبةَ، ولأهلِ المعصيةِ العيشةَ الضنكَ، قالَ تعالى:{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكرِي فَإِن لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا} .وقال: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِن أَكثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ} .وقال: {وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} .وقال في أهلِ الطاعةِ: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} .

قال الحسنُ وغيرُهُ من السلفِ: "لنرزقنَّه عبادةً يجدُ حلاوتَها في قلبِهِ ".ومن فسَّرها بالقناعةِ، فهو صحيح أيضًا، ومن أنواع الحياةِ الطيبةِ الرضا بالمعيشةِ فإنَّ الرِّضا، كما قالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ:

"جنةُ الدنيا ومستراحُ العابدين ".

وقال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} . قال: {فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)}.

كما قالَ عن إبراهيمَ عليه السلام:{وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ

(122)} .ومثل هذا كثيرٌ في القرآنِ.

فما في الطاعةِ من اللذةِ والسرورِ والابتهاجِ والطمأنينةِ وقرة العينِ أمر ثابتٌ بالنصوصِ المستفيضة وهو مشهودٌ محسوسٌ يدركُهُ بالذوقِ والوجدِ مَنْ حصلَ له ولا يمكنُ التعبيرُ بالكلامِ عن حقيقتِهِ، والآثارُ عن السلفِ والمشايخ العارفينَ في هذا البابِ كثيرةٌ موجودةٌ حتَّى كان بعَضُ السلفِ يقولُ: لو يعلمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه لجالدُونا عليه بالسيوفِ ".

وقال آخرُ: "لو علِموا ما نحن فيه لقتلُونا ودخلوا فيه ".

وقال أبو سليمانَ: "أهلُ الليلِ في ليلهم ألذ من أهلِ اللهو في لهوهِم ، ولولا الليلُ ما أحببتُ البقاءَ في الدُّنيا".

وقال: "إنه ليمرُّ على القلبِ أوقاتٌ يضحكُ فيها ضحِكًا".

وقال ابنُ المباركِ وغيرُهُ: "مساكينُ أهلِ الدنيا خرجُوا منها ولم يذوقوا

أطيبَ ما فيها، قيل: ما أطيب ما فيها؟

قال: معرفةُ اللَّهِ ".

وقال آخرُ: "أوجدني اللَّه قلبًا طيبًا حتى قلتُ: إن كان أهلُ الجنةِ في مثلِ هذا فإنَّهم في عيشٍ طيب ".

وقال مالكُ بنُ دينار: "ما تنعمَ المتنعمونَ بمثلِ ذكرِ اللَّهِ ". وهذا بابٌ واسعٌ جدًّا... **روائع التفسيرج2ص 134.**

نهارك يَا مغرور سَهْو وغفلة ... وليلك نوم والردى لَك لَازم

وتتعب فِيمَا سَوف تكره غبه ... كَذَلِك فِي الدُّنْيَا تعيش الْبَهَائِم

فقد انحصر مفهوم العبادة في صور الشعائر التعبدية التي أصبحت تؤدى كعادة موروثة ليس لها من أثر في حياة ممارسيها، اللهم إلا ما تستغرقه من زمن لأدائها. (وتم عزل العبادة عن بقية الإسلام حتى كأن الإسلام منحصر فيها دون بقية الأجزاء كالجهاد مثلاً، وأحكام المعاملات أو العلاقات المالية ومع أن أكثر الناس إن لم نقل كلهم يعلمون أن الإسلام ليس هو العبادات المفروضة فحسب، فإنهم أهملوا الجوانب الأخرى، وغضوا النظر عنها وأنزلوا

مرتبتها. ودعا فريق من المرشدين إلى الإعراض عما سوى هذه العبادات، فالجهاد وإنكار المنكر ورد الطغيان والاستعمار ومقاومة الظلم والعمل في جميع ما ينفع المسلمين من الأمور العامة، كل ذلك في نظر هذا الفريق من الناس وما أكثرهم في عصور الانحطاط - فضول يشغل عن الله وعبادته ... وبينما كانت مقاييس الصلاح والتقوى في الإسلام شاملة لجميع الواجبات التي أوجبها الإسلام من عبادات خاصة، وجهاد وعلم وعدل وعمل نافع للناس واستقامة في المعاملة وإحسان، كل ذلك مقروناً بتوحيد الله والإخلاص له أصبحت مقاييس التقوى محصورة في العبادات) (انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (1/ 100)).

وهكذا أعانت هذه الفكرة التي عزلت العبادة عن بقية أجزاء النظام الإسلامي الشامل على ضعف الوعي السياسي، والاجتماعي والأخلاقي.

ولقد تسبب هذا الانحصار في مفهوم العبادة في سلبيات من أهمها:

- صارت الشعائر التعبدية تؤدى بصورة تقليدية، عديمة الأثر والفائدة حين عزلت عن بقية أمور الإسلام فلا تؤدي هذه الشعائر دورها في حياة الإنسان وقد عزلت عن بقية جوانب العبادة الأخرى، فالصلاة التي يخبر الله - عز وجل - عنها بقوله: {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} (سورة العنكبوت: 45). لم تعد ذات أثر واقعي في حياة مؤديها من الناس حيث لم تعد تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وما كان لها أن تحدث ذلك الأثر وقد حصرت العبادة في أداء الشعائر التعبدية فحسب.

- تهاون الناس في بقية جوانب العبادات الأخرى.

إذ هي عندهم ليست من العبادة في شيء. حين نرى من المسلمين من يصلي الفروض جماعة في المسجد، ثم يخرج ويحلف عند عتبة المسجد كاذباً، ويغش في بيعه وشرائه،ويحتال في معاملاته، ويأكل الربا أضعافاً مضاعفة، ويقع في أعراض الناس، ثم تراه سادراً في ذلك مرتاح الضمير، هادئ الخاطر، قد أسكت و خزات ضميره وتأنيب نفسه بما نقره من ركعات.

- العناية بالجانب الفردي الشخصي، وإهمال الجوانب الاجتماعية فنجد أن المسلمين قد " عنوا بالآداب الفردية والمتعلقة بذات الإنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعية المتعلقة بالآخرين، فقد يكون المسلم في ذاته نظيفاً ولكنه لا يبالي أن يلقي القمامة في طريق المسلمين، ناسياً أن " إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان " كما ورد في الحديث (مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الايمان (1/ 63))، وقد يكون المسلم مراعياً لأحكام الطهارة وشروط النظافة في نفسه، ولكنه لا يبالي أن يلوث للناس طرقهم وأماكن جلوسهم وأن يخل بالآداب الاجتماعية التي أمر الإسلام بها " (انظر: المجتمع الاسلامي المعاصر لمحمد المبارك، ص66).

ونتيجة لكون مفهوم العبادة انحصر في الشعائر وحدها وخرجت منها بقية الأعمال، فاهتم الناس بشؤونهم الخاصة وأهملوا شئونهم العامة، ونمت روح الفردية على حساب الروح الاجتماعية.

- إقامة العبادة مقام العمل، والاكتفاء برسومها وشعائرها وبما أحدث فيها من بدع عن اتخاذ الأسباب.

" قراءة القرآن وتلاوته لفظاً أصبح بديلاً عن العمل بما فيه، من آيات الجهاد والنظر إلى الكون والتفكير فيما خلق الله وإقامة العدل والميزان بالقسط، والحكم بما أنزل الله واستثمار ما في الكون من نعم الله مع أن ذلك كله عبادة ... وبينما كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستعد لقتال المشركين كل الاستعداد كما أمره الله ويدعو الله ويبتهل إليه لينصره إذا بالمسلمين في هذه العصور الأخيرة يجعلون الصلاة والدعاء - المأثور منه والمبتدع المخترع - بديلاً عن الأسباب فيلتمسون الرزق والشفاء والنصر لا بأسبابه المشروعة التي جعلها الله سبباً وطريقاً إليها، بأدعية خاصة يقتصرون على تلاوتها، وربما اخترعوا لذلك رقى وتمائم وحجباً، وزيارات لأمكنة خاصة وأوراداً ابتدعوها ...) (انظر: المجتمع الاسلامي المعاصر، ص69).

ولقد نتج عن هذا الانحصار الخطير في مفهوم العبادة أن خرجت جميع الأعمال الأخرى عن دائرة العبادة، فخرج العمل الجماعي بما يشتمل عليه من مودة وإخاء ، و رقابة الأمة على جميع أحوالها ، والأعمال التي تنفعها في دينها ودنياها : كراقبة حاكم، وتقديم النصيحة إليه، والسهر على تطبيق الشريعة ، والجهاد في سبيل الله ، ورد كيد الأعداء ، وإعلاء كلمة الحق ، وأجراء العدل في حياة الناس.

منذ مدة ليست بالقصيرة، ظهر عدد من "المسلمين" المقيمين في الغرب في مقطع فيديو يقولون: أنا مسلمة ولكني أحب الرقص. أنا مسلمة ولكني غير محجبة. أنا مسلم لكني لا أكره المثليين..إلخ

ورغم انزعاجي من هذا الفيديو الذي أستطيع أن أوجزه في عبارة: أنا مسلم لكني لا أعمل بالإسلام = كان انزعاجي أكبر من هذه الصور التي تنتشر منذ أشهر لمحجبة ترقص باليه ومنتقبات يعزفن الكمان أو يرتدين ألوانا لا يلبسها سوى مهرج السيرك، لتستمر بذلك سلسلة العبث الذي بدأ بصورة المنتقبة التي تفترش أرضية أحد مساجد مصر القديمة وجالسة في بستان وقد مدت رجليها إلى الكاميرا وملتح ينشر منشورات تحليل الأفلام وآخر ينشر الدروس المستفادة من أغان تحوي قدرا ملحوظا من رقص المحجبات.

إنها حالة من التملص من التكاليف الشرعية بحيل تفقد الشريعة حكمتها. فالنقاب والحجاب غرضهما الستر لا لفت الأنظار بالألوان والمكياج واتباع أحدث صيحات الموضة، والشريعة سدت كل باب موصل للفت الأنظار حتى العطر الذي يشمه الرجال، فإن كنت تعتقدين أن النقاب لا يمنع المرأة من التمتع بكل متع الدنيا فقد خدعوك يا سيدتي. وهل التكاليف الشرعية إلا حدود لا نتعداها لننال الأجر في الآخرة؟! وإذا كنت تعتقد أنك الملتحي المتفتح الذي

يستطيع أن يستخرج الحكمة من بطون هوليوود فقد فتنت الناس ولبست عليهم دينهم.

أعوذ بالله أن نكون كأصحاب السبت. تحايلوا لينالوا كل شيء فحُرموا رضا الله ومن إنسانيتهم. استقيموا كما أمرتم لا كما تحبون فإنما أباح الله بالتمتع بالحلال.

يمتاز مفهوم العبادة في الإسلام بمجموعة من المزايا الفريدة مقارنة بما كان عليه في الأديان والمعتقدات السابقة، وفي مقدمة هذه المزايا: شمولية العبادة، حيث أسبغ الإسلام على جميع أعمال الإنسان - تقريبا- صفة العبادة، شريطة إخلاص النية للخالق سبحانه وتعالى.

ولعلّ من أبرز الآيات القرآنية التي تبين هذا المعنى بوضوح تام قوله تعالى، في معرض حديثه عن المجاهدين في سبيله، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون} (التوبة: 120-121).

1- المعنى العام للعبادة:

لا يخرج المعنى العام للعبادة في الإسلام عن حدّ إظهار الخشوع والخضوع لله لا، كما تتضمن العبادة كذلك معنىً أساسيًّا لا يجوز أن يغفل عنه المؤمن، ألا وهو: أنّ ممارستها تأتي بعد الإيمان بالله الذي شرّعها، وبرسوله الذي بلغها وبيّن تفاصيلها، وأنّ القيام بها تنفيذٌ لأمر الله ورسوله الذي جاءنا من عنده بالعقيدة والعبادة، بالشريعة والشعيرة، بالدين والمعاملة: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} (الكهف: 110)

والواقع الذي لاشك فيه، أنّ مراتب العبادة في الإسلام تضم إلى جانب هذا الأصل العظيم (المحبة) أصلين آخرين هما: الخوفُ، والرجاء. فالخوفُ من الله تعالى ملازم للرجاءَ كجناحيْ الطائر إذا استويا استطاع أن يتحرك ويطير، وإذا اختل أحدهما حيل بينه وبين ذلك، وهو ما عبر عنه سبحانه بالقول: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} (الإسراء: 57) حيث اشتملت الآية على درجات الإيمان الثلاثة التي لا يقوم بناؤهُ إلا عليها، ألا وهي: الحب، والخوف، والرجاء. فابتغاءُ الوسيلة إليه يعني: طلبُ القرب منه سبحانه بالطاعة والعبادة.

أما الرجاء؛ فهو عبارة عن: "حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب [وهو الله والدار الآخرة] ويطيِّبُ

لها السير. وقيل: هو الاستبشارُ بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياحُ لمطالعة كرمه سبحانه. وعلامة صحة الرجاء: حسنُ الطاعة، والنظر إلى سعة رحمته تعالى"(المصدر السابق، 2/457).

وفي السياق ذاته، يُلاحظ أن آيتي سورة الحجر قد اشتملتا أيضا على عاملي الخوف والرجاء: {نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيم} (الحجر: 49-50) وقد دفع ذلك ابن عطاء اللّه الأدمي لآن يفسرها بالقول: أي أقم عبادي ما بين الخوف والرجاء ليصحَ لهم سبيلُ الاستقامةِ في الإيمان؛ فإنه مَن غلبَ عليه رجاؤُه عطّله، ومَن غلب عليه خوفه أقنطه(قارن بـ ابن عطاء اللّه الأدمي: تفسير أبي العباس بن عطاء، ضمن كتاب: نصوص صوفية غير منشورة لشقيق البلخي وابن عطاء الآدمي والنفّري، حققها وقدم لها بولس نويا اليسوعي، رقم 7 من سلسلة "بحوث ودراسات"، (بيروت: معهد الآداب الشرقية، 1986م)، ص72) {وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُون} (يوسف: 87).

2 - مفهوم العبادة:

في المقابل من ذلك، يرى الإمام مُحمّد عبده أنّ الذي يُميز العبادة عن غيرها من مختلف ألوان الخضوع وأنماط التذلل وضروب الانقياد الأخرى، ليس هو درجة الطاعة والخضوع - كما يقول اللغويون الذين يرون العبادة هي أقصى درجات الطاعة والخضوع- وإنما العمدة في توضيح ذلك يكونُ بالنظر إلى منشأ هذا الخضوع، فإنْ كان منشؤهُ وسببهُ أمرًا ظاهرًا كالمُلكِ والقوةِ ونحوهما، فلا يُسمى عبادة، وإنْ كان منشؤهُ الإقرارُ بعظمة المعبود وأنه يمتلك قدرًة تعلو على قوى الإدراك والحس معا، فذلك ما يصحُ أنْ يُطلق عليه لفظ "العبادة".

ويتساءل الإمام في سياق تفسيره قول الله تعالى: {إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعِين}(محمد عبده: الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم: د. محمد عمارة، الطبعة الثانية، [5 مجلدات]، (القاهرة: دار الشروق، الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 1427 هـ- 2006م)، 4/33): "ما هي العبادة؟ يقولون: هي الطاعة مع غاية الخضوع. وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل، وتجليه للأفهام واضحا لا يقبل التأويل، فكثيرا ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه، ويعرفون الحقيقة برسومها، بل يكتفون أحيانا بالتعريف اللفظي ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها، (...) وإننا إذا تتبعنا آي القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لـ "عَبَدَ" وما يماثلها ويقاربها في المعنى كخضَعَ وخنَعَ وأطاعَ وذلَّ، نجد أنه لا شيء من هذه الألفاظ يضاهي "عَبَدَ" ويحل محلها ويقع موقعها!

ولذلك قالوا: إن لفظ "العباد" مأخوذ من العبادة، فتكثر إضافته إلى الله تعالى، ولفظ "العبيد" تكثر إضافته إلى غير الله تعالى، لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرِّق، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى.

ومن هنا قال بعض العلماء: إنّ العبادة لا تكون في اللغة إلا لله تعالى، ولكن استعمال القرآن

يخالفه".

فعلى سبيل المثال: "يغلو العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلوا كبيرا حتى يفنى هواه وتذوب إرادته في إرادته، ومع ذلك لا يُسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة، ويُبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء، فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم مالا تراه من المتحنثين القانتين، فضلا عن سائر العابدين، ولم يكن العرب يسمون شيئا من هذا الخضوع عبادة. فما هي العبادة إذن؟!

يجيب الإمام على تساؤله هذا بالقول: "تدل الأساليب الصحيحة، والاستعمال العربي الصراح على أنّ العبادة ضربٌ من الخضوع بَالغٌ حدَّ النهاية، ناشيءٌ عن استشعار القلب عظمَةً للمعبود، لا يَعْرفُ منشأهَا، واعتقاده بسلطةٍ له لا يُدركُ كنههَا، وماهيتهَا، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه، فمَن ينتهي إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال إنه عبده، وإن قبّل موطئ أقدامه، ما دام سبب الذل والخضوع معروفا، وهو الخوف من ظلمه المعهود أو الرجاء بكرمه المحدود، اللهم إلا بالنسبة للذين يعتقدون أن المُلْك قوة غيبية سماوية أُفيضتْ على الملوك من الملأ الأعلى، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا، (...) وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد، فاتخذوا الملوك آلهة وأربابا وعبدوهم عبادة حقيقية [من دون الله]".

وينتهي الإمام إلى تقرير أنّ لكلّ عبادة من العبادات الصحيحة "أثرٌ في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه، و[أنّ] الأثر إنما يكون على ذلك الروح والشعور الذي قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع، فإذا وُجدتْ صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة [على الحقيقة]، كما أنّ صورة الإنسان وتمثاله ليس إنسان"(المصدر السابق، 4/34).

أما أبو الأعلى المودودي؛ فيشير هو الآخر- استنادا إلى الاستعمال اللغوي الغالب على مادة "عبد"-، إلى أنّ مفهوم العبادة الأساسيّ هو: أنْ يُذعِنَ المرءُ لعلاءِ أحدٍ وغلبته، ثم يَنْزلُ له عن حريته واستقلاله، ويترك إزاءه كل المقاومة والعصيان وينقاد له انقيادا [ظاهرا]. وهذه هي حقيقة "العبدية" و"العبودية"، ومن ذلك أن أول ما يتمثل في ذهن العربي لمجرد سماعه كلمة "العبد" و "العبادة" هو تصوُّر العبدية والعبودية. وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي إطاعة سيده وامتثال أوامره، فحتما يتبعه تصور [وجوب] الإطاعة"(أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن: الإله- الرب- العبادة- الدين، تعريب محمد كاظم سباق، (الكويت: الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع، 1955م)، ص97).

وفي السياق ذاته يوضح المودودي أنّ التأله والتنسك، هما عبارة عن حالةٍ تُطلق على العبد

الذي لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللا فحسب؛ بل كان مع ذلك معتقدًا بعلائه معترفا بعلو شأنه، وكان قلبه مفعما بالامتنان على نِعَمه وأياديه. ومن ثم؛ فإنه يُبالغ في تمجيده وتعظيمه، ويتفنّنُ في إبداء الشكر على آلائه، وفي أداء شعائر "العبدية" له. فهذا المعنى لا ينضم إلى معاني "العبدية" الأولى، إلا إذا كان العبد لا يُخضِعُ لسيده رأسَهُ فحسب، بل يُخضِعُ معه قلبه أيضا(المصدر السابق، 97).

وذلك يعني أنّ الإذعان والخضوع الكليّ، هما أصلُ العبادة، وأنّ عبودية القلب أسْمى منزلةً من عبودية الجوارح؛ لأنّها تنقل المُتعبِّدَ من "العبودية" إلى "التنسُّك، بمعنى المبالغة في العبادة ظاهرًا وباطنا، ثم إلى التألُه"، وهنالك ينطبق عليه قولِ المولى سبحانه: «مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ , وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ , وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ , فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ , وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ , وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا , وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا , فَلَئِنْ سَأَلَنِي عَبْدِي أَعْطَيْتُهُ , وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعَذْتُهُ , وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ إِسَاءَتَهُ , أَوْ مُسَاءَتَهُ» (أحمد ، والحكيم ، وأبو يعلى ، والضياء ، وأبو نعيم فى الطب ، والبيهقى فى الزهد ، وابن عساكر عن عائشة).

يتحصل مما سبق إذن، أن العبادة في الإسلام اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة؛ وذلك بحكم كونها الغاية المرضية له، والتي خلق الخلق من أجلها، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون} (الذاريات: 56)، وبها أرسل جميع الرسل، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوت}(النحل: 36).

وبحسب ما يؤكد سيد قطب؛ فإن المعنى المحدد الذي طلبه جميع الرسل من أقوامهم لا يخرج عن أمور ثلاثة هي:

أولا: أهمية هذا الأصل باعتباره قاعدة التصور الإسلامي.

ثانيا: خطأ منهج علم مقارنة الأديان عن "تطور" عقيدة التوحيد، من دون استثناء الرسالات السماوية؛ بل بالإغفال المتعمد لاستقلال هذه الرسالات عما صاغته العقول البشرية من ركام العقائد والتصورات، واعتبار ما جاءت به مجرد تطور في المحاولات البشرية في مجال الاعتقاد.

ثالثا: خطر هذا المنهج على العقيدة الصحيحة، لمناقضته للمنهج القرآني، ومخالفته عن قول الله في هذه القضية(سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، الطبعة الخامسة، (القاهرة: دار الشروق، 1418هـ- 1997م)، ص 98).

3- شمولية العبادة:

تضمن معنى العبادة في الإسلام إذن الدين والحياة من جهة، وكيان الإنسان ظاهره وباطنه من جهة أخرى. ولعل ذلك هو ما دفع ابن تيمية لأن يضمنها - إلى جانب الشعائر المفروضة- ما زاد عليها من ألوان التعبد التطوعي من ذكر وتلاوة واستغفار، ومن أخلاق وفضائل إنسانية جامعة: كصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من ضروب العبادة المشهورة، ومن أخلاق ربانية عالية: كحب الله ورسوله وخشيته والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه،...إلخ(قارن بـ ابن تيمية، العبودية، 8).

ولعل ذلك أيضا هو ما دفع تلميذه ابن القيم في مدارج السالكين لأن يفصِّل مراتب العبودية وحظ القلب واللسان والجوارح والحواس منها في خمسين مرتبة موزعة عليها، مؤكدا أن رحى العبودية في الإسلام تدور على خمس عشرة قاعدة، مَن كمّلها فقد كمّل مراتب العبودية "وبيانها: أنّ العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه. والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح"(انظر تفصيل هذه القواعد الخمس عشرة في، مدارج السالكين، 2/104-113).

وواقع الأمر أن ابن تيمية أضاف إلى جميع ما سبق ذكره فضيلتين أو بالأحرى فريضتين كبيرتين بمثابة السياج لذلك كله، ألا وهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين في سبيل الله(العبودية، 31). مع الأخذ بعين الاعتبار أنه ينحو في مواضع أخرى من كتاباته إلى عدم حصر الجهاد في معناه العسكري، أو الجهاد الأصغر فحسب ؛ وإنما يعبر به عن معنى "الجهاد الأكبر" تبعا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رجعنا من الجهاد الأصغر [القتال] إلى الجهاد الأكبر [جهاد النفس]"(ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، [37 مجلد]، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية،1406هـ- 1985م)، 11/197)، إذ يتسع معنى الجهاد في الإسلام ليشتمل على أنواع، أو أبعاد، أو جبهات أربع هي:

أولا: جهاد أو مقاومة المحتل الغاشم الذي يبدأ بالعدوان.

ثانيا: مقاومة الحاكم الجائر، والاستيلاب المطلق للأنظمة الشمولية.

ثالثا: مقاومة كلّ تقليد من شأنه أن يؤدي إلى التبعية العمياء للآبائية.

رابعا: مقاومة/مجاهدة النفس، المعبر عنها في الحديث الشريف بـ "الجهاد الأكبر".

- فعلى الصعيد الأول - الجهاد الأصغر (القتال)- نلاحظ أنّ الإسلام يأمر المسلمين بأن يأخذوا بالمسالمة العامة مع كل الفئات المسالمة، من كل الناس الذين يختلفون معهم في

المعتقد، وذلك عن طريق الأخذ بأسباب العدل، في معاملتهم وبالإحسان إليهم، مصداقا لقوله تعالى: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة: 8) أما الذين يمارسون البغي والعدوان بالقتل والتشريد ومساعدة الأعداء، فلهم وضع آخر، يكشف عنه المولى عز وجل حين يقول: {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (الممتحنة: 9).

ونفهم من ذلك أنّ الجهاد لم يفرض على المسلمين إلا بعد أن طال بهم أمد الإيذاء من جانب المشركين، فنزلت الآية الكريمة: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِير الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْض لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} (الحج 39-41).

- أما بالنسبة لارتباط العبادة بالصعيد الثاني، وأعني به مقاومة الحاكم الجائر والاستيلاب المطلق للأنظمة الشمولية، فيكفي للتدليل على ذلك أنّ القرآن الكريم قد قرن عبادة الله في أكثر من موضع من آياته بالتوقف عن عبادة الطاغوت فقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} (النحل: 36) ويكفي للتدليل على ذلك أيضا حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ , كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» (الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، الطبعة الأولى، (مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1407 هـ)، ص 3256. عن أبي سعيد الخدري. وقارن أيضا بالألباني، صحيح سنن أبي داود، الطبعة الأولى، (مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1409هـ)، ص 4344) وقوله كذلك: «أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ , وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ عَلَى ذَلِكَ» (أخرجه ابن ماجه (1/106 ، رقم 291)).

- وفيما يتعلق بارتباط العبادة بالمستوى الثالث - مقاومة كل تقليد من شأنه أن يؤدي إلى التبعية العمياء للآبائية- فيكفي للتدليل على ذلك أنّ القرآن الكريم قد استند في دعوته الكفار والمشركين إلى الإسلام على هدم منظومة التبعية العمياء والدعوة إلى التحرر من قيود التقليد، ووطد لهذا المبدأ الذي يعد ركيزة أساسية لبناء المؤسسات الحياتية بمبادئه وسلوكياته القائمة على معيار العقل والمنطق، ومبادئ النظرة الكلية للكون، وقيم النزعة الذاتية التحررية، كما أكد أيضا: أنه لا ضرر مطلقا في اعتماد الحوار وسيلة في أكثر الأمور الفكرية تعقيدًا، لأنه أراد أن يفتح الطريق أمام العقول الواعية، لتقرر الأدلة على المعرفة الجازمة التي تنفي كل تقليد يؤدي إلى التبعية العمياء: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} (الأنبياء: 51-54).

- أخيرا، فيما يتعلق بارتباط المستوى الرابع/ مقاومة النفس بالعبادة، فيكفي للتدليل على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه "الجهاد الأكبر" وهو المقصود بقوله عن الإسلام في موضع آخر: "وذروة سنامه الجهاد"(18). خاصة وأنّ القصد من الدين، فيما يؤكد الشيخ محمود شلتوت، "ليس إلا تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال والطاعة، واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصلاح في الأرض على أساس قوي متين من ربط الإنسان بخالقه"(محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام- تصحيح بعض المفاهيم، توضيح موقف الإسلام من بعض المشاكل، الأخلاق الإسلامية، ضروب من العبادات، تقديم: محمد البهي، الطبعة الثانية، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2010)، ص 18).

على أنّ تلك الارتباطات تدفعنا إلى طرح تساؤل من نوع آخر، ألا وهو: إذا كان لكل شيءٍ حقيقة؛ فما حقيقة العبادة إذن؟ هل هي تلك الشعائر المفروضة من صلاة وزكاة وصيام وحج؟ أم أنّها شيءٌ آخر يكمُنُ وراءَ ذلك وأعظم منه؟!

إنّها بلا شك شيء آخر وراء ذلك وأبعد منه؛ "فالفرائض والشعائر التعبدية جسد حياته الشعائر الروحية، والشعائر الروحية صورة حقيقتها، التذلل للمعبود جلّ جلاله، وخضوع له وامتثال لأمره، ووقوف عند حده، والشعائر التعبدية مظهر، وباطنه توحيد المعبود جلّ وعلا" (محمد عبد الله الخطيب: العبادة في الإسلام، جوهرها وأفاقها، رقم 7 من سلسلة نحو النور، (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1989م)، 29).

ولعل ذلك يفسر- في ناحية من النواحي- شمولية العبادة في الإسلام؛ خاصّة وأنّ محاولة الوصول إلى الغايات من العبادات يُمثل بحدّ ذاته جزءًا من العبادة، يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}(آل عمران: 190-191)، ويكفي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عقّب على هذه الآية بالقول: "ويل لمن قرأها ثم لم يتدبرها"(21).

4- العبودية والحرية:

غير أن هذا الأمر- أعني الجهاد الأكبر، أو تزكية النفس- فضلا عن ارتباطه بالعبادة بالدرجة الأولى، يرتبط بأمرين آخرين على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية؛ ألا وهما: الحكمة والحرية. فالحكمة "جند من جنود الله يقوي بها قلوب أوليائه"(22). يقول تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُو}(المدثر: 31) ومن ثم؛ فبمقدور المرء أن يطمح إلى أن يكون من جند الله، وذلك بأن "يسعى بأقصى ما في طاقته من جهد في سبيل بلوغ هذه الغاية السامية، لكن الله وحده يعلم

جنوده، إن لكل إنسان حرية السعي نحو الدخول إلى سلطان الله" (خالد مدحت أبو الفضل، الاستبداد والمرجعية في الخطاب الإسلامي- دراسة الحالة المعاصرة، ترجمة: محمد صقر عيد، تقديم: أنور إيمان، الطبعة الأولى، (دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع، 2004م)، ص 21).

فوحْدَهُ القلبُ الممتلئ حكمة هو مَن يعرف المعنى الحقيقي للتعاليم الدينية إذ يُعاينها في قلبه، بعد أن تتكشّفَ له طبيعتُها الجوهرية، يقول أبو بكر الشبليُّ في هذا المعنى: "إنّ لله عبادا يرون ما وراءهم من الأشياء: يرون أحوالَ الدنيا بلحظات قلوبهم، وأحوالَ الآخرة بخطرات سِّرهم، وأحوالَ ما عند الله بإشارات خفيهم"(الجنيد البغدادي، السر في أنفاس الصوفية، تحقيق: عبد الباري محمد داود، مراجعة: جودة محمد أبو اليزيد المهدي، (القاهرة: دار جوامع الكلم، 2003م)، ص 168).

ومن هنا نفهم سرَّ ارتباط التفقه في الدّين بالتقوى، كما في قوله سبحانه: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} (البقرة: 282) وكما في قول مصطفاه: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين"، وقوله كذلك: "مَن عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم".

أما بالنسبة لارتباط "الجهاد الأكبر" بالحرية؛ فإنه يستند إلى الإيمان بأنّ حرية المرء ليست أمرًا خارجا عن العبودية لله باعتبارها أعلى مراتب الحرية. وهذا المعنى الفريد للعبودية يقترن بمنتهى الطاعة لله، وخلاص السالكين من "رِّق الأغْيَار" وعبودية ما دون الله، إذ لا عبودية إلا لله. ومعنى ذلك أنّ التحرر من العبودية لا يتم إلا بإحلال "عبودية الله" محل "عبودية الإنسان"؛ فالعبودية لله مشروطة إذن باللاعبودية للسلطان، وفي هذا يكمن معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

ولعل الاقتران يبدو واضحا هاهنا ما بين العبودية والحرية، فغاية العارف - بحسب الجنيد البغدادي- هي الحرية: "آخر مقام العارف: الحرية"(الجنيد البغدادي، تاج العارفين، الجنيد البغدادي: الأعمال الكاملة، دراسة وجمع وتحقيق سعاد الحكيم، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الشروق، 2004م)، ص 107)، وفي هذا يقول أحمد بن خضرويه البلخي: "في الحرية تمام العبودية وفي تحقيق العبودية تمام الحرية"(السُلمي، طبقات الصوفية، تحقيق: نور الدين شريبة، الطبعة الثالثة، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1969م)، ص 94) والسر في ذلك أنّ المتجرد لله سبحانه وتعالى لا يصح أن تستعبده الأشياء، فمن: "تفرد بالله لم يذله سلطان ومن توكل عليه لم يضره إنسان. وأفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ومن لم ترد الشبهة يقينه" (السلمي، بيان أحوال الصوفية، ضمن كتاب: تسعة كتب فى أصول التصوف والزهد لأبى عبد الرحمن السلمى، حققها وعلق عليها: سليمان إبراهيم آتش، الطبعة الأولى، (بيروت: الناشر للطباعة والنشر والتوزيع، 1993م)، ص 374).

بعيدًا عن التعريفات ذات المنحى التجريدي، نجد أن الحرية وفق هذا المعنى ذات مضمون فاعل في تحقيق التحرر داخل النفس البشرية من عبودية السلطان من جهة، ومن عبودية الشهوات وإطاعة اللذات من جهة أخرى، ففَرْقُ مَا بينَ المؤمن وغيره "أنّ المؤمن خرج من العبودية لنفسه وللمخلوقين إلى العبودية لربه. خرج من طاعة هواه إلى طاعة الله. ليس المؤمن "سائبًا" يفعل ما تهوى نفسه أو يهوى له غيره من الخلق. إنما هو "ملتزم" بعهد يجب

أن يفي به، وميثاق يجب أن يحترمه، ومنهج يجب أن يتبعه، وهذا التزام منطقي ناشئ من طبيعة عقد الإيمان ومقتضاه"(يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام، الطبعة الرابعة والعشرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1413هـ- 1993م)، 53).

ذلك أن مقتضى عقد الإيمان يحتم ضرورة أن يُسْلِمَ المرءُ زمامَ حياته كلها إلى الله، وأن يُخرج نفسه من دائرة الخضوع لهواه إلى الخضوع لأمر الله، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا} (الأحزاب: 36).

يتحصل مما سبق؛ أنّ الحرية في الإسلام لا تقتصر على ذلك المحتوى المرتبط بالسلوك السياسي داخل الإطار الاجتماعي فقط، وإنما تتعدى ذلك إلى الحرية بمفهومها الروحي المتعالي: فثمة حرية ذاتية، وحرية غيرية، وتحقق هذين الضربين من الحرية يفضي لا محالة إلى تحقق كلا الجهادين: الأصغر والأكبر معا.

5- الأبعاد الاجتماعية لمفهوم العبادة:

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نفهم الأسباب التي دفعت بابن تيمية إلى توسيع معنى العبودية وبيان شموليتها لكلّ ما فيه صلاح الخلق في العاجل والآجل. ولا أدل على ذلك كله من أنه عدّ الأخذ بالأسباب، ومراعاة السنن الإلهية التي أقام الله الكونَ عليها من العبادة، فقال: "إن كل ما أمر الله به عبادَهُ من الأسباب، فهو عبادة"(ابن تيمية، العبودية، 44).

فعبادته سبحانه وتعالى ليست محصورة في الصلاة والصيام وما يلحق بتلك الفرائض من تلاوة وأذكار واستغفار، كما يحسب كثير من المتدينين أنهم إذا رددوا أذكار الصباح والمساء، وداوموا على أذكار ما بعد كل صلاة، فقد قاموا بواجب العبودية لله كاملا! فمع ما لهذه الشعائر العظيمة من منزلة وأهمية كبيرة في الإسلام؛ إلا أنها تمثل جزءا يسيرا فقط من مفهوم العبادة، وليست هي كل العبادة التي خلق الله لأجلها الإنسان.

والحال، أنّ فهما أعمق للحكمة من الشعائر التعبدية في الإسلام يفضي إلى الإيمان الراسخ الذي لا يتزعزع بأنّ شرف المؤمن ليس في قيام بضعة ركيعات بالليل فيما هو راضخ للظلم خانع للاستبداد أثناء النهار، وإنما شرفُ المؤمن حقا هو أنْ يأمُرَ بالمعروف وينهى عن المنكر ويسعى لهداية الناس في أمور دينهم ودنياهم. شرفُ المؤمن حقا أن يقاوم قوى الطغيان في نفسه والعالَم من حوله، وأنْ يحْمِلَ على عاتقه مهمة تبليغ رسالة الإسلام، وهو على أتم إدراك أنّ جوهرها الحي إنما يكمن في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، لا أنْ يرْضى لنفسه وللآخرين بالعيش في أعمق عمائق الظلمات مكتفيا بشرف قيام الليل، فيما هو مسلوب الشرف فاقده بالنهار! (ولعل من أبرز الظواهر المصاحبة لهذا الأمر شيوع الانقسام والازدواج في شخصية أغلب المتدينين الذين يفهمون العبادة فهما جزئيا قاصرا، فإذا بك تراهم: "ممن يعبدون الله في الليل، ويعبدون (المجتمع) في النهار، ... يعبدون الله في المسجد، ويعبدون (الدنيا) أو (المال) في ساحة الحياة، ... يعبدون الله في يوم من أيام الأسبوع [الجمعة] ثم

يعبدون ما سواه ومن سواه سائر أيام الأسبوع. [يعبدون الله في شهر من الشهور، كرمضان، ثم يعبدون ما سواه في سائر شهور العام]". انظر العبادات في الإسلام، 66).

والواقع أنّ حال مَن يفعل ذلك يكون أشبه بحال مَن ينطبق عليه المثل القائل: "ما فائدة اللبن إذا ما أطاحت البقرة بالدلو"؟!، فكثير من الخلق لا يراعي في أداء العبادات إلا نفسه فحسب؛ أما انعكاس تلك الشعائر بصورة إيجابية على معاملاته فلا يحقق فيه شيئا مذكورا حيث لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر والبغي! بل إن كثيرا منهم لا تذكره الأعياد الدينية برحم يجب وصلها، أو ببطون جائعة يجب إطعامها، ولا بأجساد عارية يتعين كساؤها، ناهيك بمظلوم يبحث عن سند له في مواجهة ظالم أقوى منه! أو بمسكين تكفيه اللقمة فلا يجدها!

وعلى ذلك؛ فإن كل عمل اجتماعيّ أو سياسيّ أو ثقافيّ أو تربويّ نافع يعد عبادة عند الله تعالى، وما أن يخلص المؤمن في عبادته لله، وفق هذا المعنى، حتى تصبح حياته جهادا في سبيل الله. ينطبق ذلك على أقلّ الأعمال وأكثرها في آن معا: فمساعدة الزوج زوجه في أعمال البيت عبادة، واللعب مع أطفاله عباده، وإطعام أهله من الرزق الحلال عبادة، وسيره إلى العمل ورجوعه منه عبادة، وذهابه إلى الجامعة ورجوعه منها عبادة، وإماطته الأذى عن الطريق صدقة، وتبسمه في وجه أخيه المسلم صدقة، ونظافة بدنه عبادة، وتلبية حاجته الجنسية في الحلال عبادة؛ ففي الحديث: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: " أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّه لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ"! صحيح مسلم .

فما الظن بكلّ عملٍ يمْسَحُ به المسلم دمعةَ محزون، أو يُخفِفُ به كُرْبةَ مكروب، أو يُضْمد به جراح منكوب، أو يسدُّ به رَمَقَ محروم، أو يشدُّ به أزرَ مظلوم، أو يُقيلُ به عثرةَ مغلوب، أو يقضي به دين مدين...إلخ؟! ولذلك أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نصه: "رأيتُ ليلة أسري بي مكتوبا على باب الجنة: الحسنةُ بعشر أمثالها والقرضُ بثمانية عشر"، لأنّ الأولى تطال فردا واحدا، أما القرض فلربما أدخل البهجة والسرور على أسر بأكملها، ولك أن تتخيل ما قد ينتج عن هذا الإقراض لشاب يريد أن يتزوج من عفة نفسه وزوجه، وفرحة أسرته وعائلة زوجه، وإتاحة الفرصة لتكوين أسرة يعمها الخير والأمن والسلام!

ومع ذلك؛ فإن كثيرا من أوجه الخير في زماننا هذا تنصرف إلى جهات أدنى مرتبة وأقل ضرورة، كالمبالغة في بناء وتزيين المساجد، وكثرة الذهاب لآداء مناسك الحج والعمرة...إلخ. وفي حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ t، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَتَهُ يُثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقَ فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ» (كتاب الزهد و الرقائق لعبد الله بن المبارك ،

(الإسكندرية: دار ابن خلدون، 1994م)، باب صلاح اهل البيت عند استقامة الرجل، ص 70).

فالإسلام لا يكتفي باستحباب رفع الأذى عن الطريق وسقاية الحيوان الظمآن والنهي عن حبس القطط فحسب، وإنما يدعو إليها، ويحث عليها، ويأمر بها، وهو تارة يسميها "صدقة" وطورا يسميها "صلاة"، وهي على كل حال عبادة وقربة إلى الله تعالى. ولا أدل على اشتمال العبادة كل هذه الأعمال من حديث أَبِي ذَرٍّ - رضي الله عنه - قَالَ: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: مَاذَا يُنَجِّي الْعَبْدَ مِنَ النَّارِ؟، قال: الإيمان بالله. قلت: يا نبي الله؛ مع الإيمان عمل قَالَ: " الْإِيمَانُ بالله "، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ , مَعَ الْإِيمَانِ عَمَلٌ؟ , قَالَ: " أَنْ تَرْضَخَ (أَيْ: تُنفق) مِمَّا رَزَقَكَ اللَّهُ " (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ , فَإِنْ كَانَ فَقِيرًا لَا يَجِدُ مَا يَرْضَخُ؟ , قَالَ: " يَأمُرُ بِالْمَعْرُوفِ , وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ "، فَلْيُعِنِ الْأَخْرَقَ (أَي: لَجاهِلٍ بما يَجب أَن يَعْمَلَه , ولم يكُنْ في يديه صَنْعةٌ يَكْتَسِب بها) "، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ لَا يُحْسِنُ أَنْ يَصْنَعَ؟ , قَالَ: " فَلْيُعِنْ مَظْلُومًا " , قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ , أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ضَعِيفًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعِينَ مَظْلُومًا؟! قَالَ: " مَا تُرِيدُ أَنْ تَتْرُكَ لِصَاحِبِكَ مِنْ خَيْرٍ؟ , لِيُمْسِكْ أَذَاهُ عَنِ النَّاسِ " , قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ , أَرَأَيْتَ إِنْ فَعَلَ هَذَا يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ؟ , قَالَ: " مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُصِيبُ خَصْلَةً مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ, إِلَّا أَخَذَتْ بِيَدِهِ حَتَّى تُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ " (صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب: 876 , 2318).

ولاشك أنّ الإسلام ليس أفعالا تعد على الأصابع من دون زيادة أو نقصان؛ وإنما هو صلاحية الإنسان للسير في الحياة بينما هو يؤدي رسالة محددة، رسالة الاستخلاف في الأرض وعمارتها. فكما يقول الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله، فإنّ لكل آلة صلاحية ما، فصلاحية الطائرة للانطلاق، وصلاحية المدفع للقذف، وصلاحية القلم للكتابة، وهذه الصلاحيات هي مناط الحكم على قيمة الأشياء فإذا اطمئننا إلى وجودها [الصلاحية] قبلناها ورجونا ثمرتها. كذلك الإنسان، يريد الإسلامُ أن تسْتقيمَ أجهزتُهُ النفسية أولا؛ فإذا توفرت لها صلاحيتها المنشودة: بصدق اليقين، وسلامة الوجهة، فإن كل عمل تتعرض له في الحياة يتحول من تلقاء نفسه إلى طاعة لله. ففي شؤون الحياة ليس للأعمال الصالحة حصر تنتهي عنده ولا رسم تخرج فيه، إنما هو إسلام الوجه لله وإصلاح العمل والبلوغ به حد الكمال (محمد الغزالي: هذا ديننا، الطبعة الخامسة، (القاهرة: دار الشروق،1421هـ- 2001م)، ص102).

وبذلك أيضا نفهم أن ربط شيخ الإسلام ابن تيمية معنى العبادة بالمحبة لم يكن أمرا عبثيا وإنما تم عن قصد ومعرفة بمكانة العبادة في الإسلام، بحكم أنها تمثل الغاية التي خلق الله لها العباد من جهة أمر الله ومحبته ورضاه. فالعبادة: "اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته، وكمال الذل لله ونهايته، فالحب الخلي عن ذل، والذل الخلي عن حب، لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين [معا]"(ابن تيمية، التحفة العراقية في الأعمال القلبية، تحقيق: قصي محب الدين بن الخطيب، الطبعة الثانية، (القاهرة: المكتبة السلفية، 1399هـ)، ص 64).

خاصة وأنّ المحبة لله تعد أرفع منازل أهل الصدق قاطبة، وهو ما عبر عنه شقيق البلخي بالقول: "إنّ المنازل التي يعمل فيه أهل الصدق أربع منازل: أولها الزهد، والثاني الخوف، والثالث الشوق إلى الجنة، والرابع المحبة لله [تعالى]"(35).

يرتبط خلق الإنسان، ومن ثم العبادة، في الإسلام إذن بتزكية النفس وتربيتها؛ ذلك أن الله "أنشأ خلقه لإظهار ربوبيته، ولبروز آثار قدرته، وتدبير حكمته، وليكون ذكره ومدحه مرددا على القلوب، وعلى ألسنة الخلق والخليقة، لِما علم في غيبه، فأنبأنا في تنزيله، فقال جل ذكره: (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (الجاثية: 22)، فأعلمنا لما خلق، فقال: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) قال أهل اللغة: إلا ليوحدون، ومثل ذلك قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) يعني نوحد"(36).

فإذا اكتمل التوحيد قلبا وقولا وعملا، استقرت المعرفة بأنه واحد، واطمئن قلب المؤمن "فالمؤمن قلبه مطمئن بالإيمان، والتوحيد ظاهر على لسانه... فمن نوّر الله قلبه بالإيمان قويت معرفته، واستنارت بنور اليقين، فاستقام به قلبه، واطمأنت به نفسه، وسكنت ووثقت، وأيقنت [بوعد ربها]، وائتمنته [الإيمان/القلب] على نفسها، فرضيت لها به وكيلا، وتركت التدبير عليه... فإذا سكنت النفوس تفرغت القلوب لعبادته، وحفظ حدوده، وإقامة أموره، وسقطت أشغال النفوس [وعلى رأسها الاشتغال بهَمِّ الرزق] عن القلوب فيما يراد بها، وما يكون [في الحاضر] وما يحدث [في المستقبل]؛ لأنها قد أيست عن أن يكون غيرُ ما جرى به القلم، وعند الإياس تسكن النفوس"(37).

ومن أجل ذلك ترتبط شمولية العبادة في الإسلام بالإنسان ارتباطا مباشرا من أجل أن تحقق له توازنه الداخلي المنشود، وهذا النظام ليس مقصورا على الصلاة والزكاة والصيام والحج فحسب، بل إنه نظام منفتح على الكون وشامل لكل حركة، ولكل فكر، ولكل شعور، إنه نظام عبادي ومنهج رباني شمل حركة الحياة بأسرها واحتوى كل جزء فيها احتواء يحقق له الانسجام مع نفسه ومع سائر الأجزاء الأخرى.

ولذلك عندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الذي يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: لا تستطيعونه. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ، كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ ، الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ، لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ، وَلَا صَلَاةٍ » البخاري ومسلم . ورغم هذا الأجر العظيم الذي أخبر النبي أصحابه الكرام أنه لا يطيقونه، فإنه أطلق على هذا النوع من الجهاد عظيم الأجر لقب "الجهاد الأصغر" مقارنة بجهاد النفس!

وفي الأحوال كلها؛ فإنه ينبغي أن يتحقق التوافق ما بين الظاهر والباطن في كلا الجهادين ، وذلك هو ما دفع ابن عطاء الله الأدمي لأن يفسر قول الله تعالى: {انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (التوبة: 41) بالقول: أي خفافا بقلوبكم، وثقالا بأبدانكم(تفسير أبي العباس بن عطاء، 55).

وحبّ الحصيد؛ إنّ الجهاد الأكبر - بمعناه السابق- يتضمن حركات الإنسان وسكناته كافة ما دام أنه في حال المجاهدة. عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه

عَلَيْهِ وَسَلَمَ يَقول: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ، عَيْنٌ بَكَتْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»(سنن الترمذي: 1639 ، و صَحِيح الْجَامِع: 4113). على أنّ الحراسة في سبيل الله لا يفهم منها هاهنا أنّها تقتصر على الرباط في الثغور، أو الجهاد لمحاربة الأعداء فحسب؛ وإنما يتسع معناها لتشمل كل شيء تقريبا: فطالبُ العلم تحرسه الملائكة وهو في طريقه إلى الدرس ذهابا وإيابا، لماذا؟ لأنه يحرُسُ في سبيل الله، وكذا الحال بالنسبة لكل من: الطبيب، والمهندس، والمزارع، والتاجر الصدوق، والشرطي الصالح، والإطفائيُّ...إلخ. ولذلك عندما سئل عمر بن عبد العزيز: أي الجهاد أفضل؟ أجاب: جهادك هواك.

ونتيجة لذلك؛ فإن إدراك العبادة في الإسلام يختلف مما هو في كل دين آخر؛ وذلك بحكم كونها "ليستْ محصورَة في أعمال من الخشوع الخالص، كالصلوات والصيام مثلا، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضا. وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم "عبادة الله" فيلزمنا حينئذ - ضرورة- أن ننظر إلى هذه الحياة، في مجموع مظاهرها كلها، على أنها تبعة أدبية، متعددة النواحي"(محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق، نقله إلى العربية: عمر فروخ، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار العلم للملايين، 1951م)، 21).

ومن هنا نفهم قول الله - تعالى - لمشركي مكة: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} (التوبة: 19-22).

6- العبادة بوصفها طريقا إلى الكمال:

يترتب على هذا الفهم مجموعة من الأمور المهمة برأينا، في مقدمتها: أنه يجب أن نأتي أعمالنا كلها - بما فيها تلك التي تبدو تافهة لنا- على أنّها عبادات، وأن نأتيها بوعي، وعلى أنّها تؤلف جزءا من ذلك المنهاج العالمي الذي أبدعه المولى عز وجل. فموقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل؛ فهو يعلمنا:

أولا: أنّ عبادة الله الدائمة، والمتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها، هي معنى هذه الحياة نفسها. ويعلمنا،

ثانيا: أنّ بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلا ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين: [1] حياتنا الروحية، [2] وحياتنا المادية؛ إذ يجب أنْ تقترن هاتان الحياتان، في وعينا وفي أعمالنا، لتكون (كلًّا) واحدا متسقا، خاصة وأنّ الإسلام - باعتباره منهج حياة- لا يكتفي بأنْ يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين المرء وخالقه فقط، ولكنه يعرض أيضا - بمثل هذا التأكيد على الأقل- للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية. إن الحياة الدنيا لا يُنظر إليها على أنها صدفة عادية فارغة، ولا على أنها طيف خيال للآخرة التي هي آتية لا ريب فيها من غير أن تكون منطوية على معنى ما، ولكن على أنها وحدة إيجابية تامة في نفسها(المصدر

السابق، ص20-21).

وعلى ذلك؛ فإنّ عبادة الله في أوسع معانيها تؤلف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية ذاتها، فثمة فرق كبير بين مَن يجاهد في سبيل الله بتأسيس المجتمع الصالح الذي يريده الإسلام، والمتعبد بالعبادات الفردية من دون أن يترتب عليها أثر إيجابي في الحياة:{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون} (البقرة: 177).

وهذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال في إطار حياته الدنيوية الفردية، فمن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام وحده يعلن أنّ الكمال الفردي أمرٌ ممكن في الحياة الدنيا. إنّ الإسلام "لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات "الجسدية"، ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من "تناسخ الأرواح" على مراتب متدرجة، كما هي الحال في الهندوكية، ولا هو يوافق البوذية التي تقول بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم. كلا، إن الإسلام يؤكد في إعلانه أنّ الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية، وذلك بأنْ يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوي في حياته [الشخصية]"(المصدر نفسه، ص 22-23).

لهذا كله كان الاكتفاءُ بالعبادات المخصوصة وحدها والاقتصار منها على مظاهرها الخارجية فحسب، وإغفال العمل لإقامة ذلك النظام الاجتماعيّ المتكامل الذي دعا إليه الإسلامُ طامَّة كبرى أصابت المسلمين في دينهم ودنياهم، مع أنهم لا ينفكون يرددون قول الرسول الأكرم: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادُدِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ» مسلم.

وبالتالي؛ فإنّ "اتخاذ تلك العبادات في مظهرها الخارجي مقياسا للصلاح والتقوى، وإهمال الأخذ بالأسباب التي سنها الله في الكون، يمثل انحرافا خطيرا عن جوهر الإسلام وتشويها لقيمه ومعاييره وانحطاطا عن رسالته الشاملة"(محمّد المبارك: نظام الإسلام: العقيدة والعبادة، الطبعة الرابعة، (بيروت: دار الفكر،1395هـ- 1975م)، 171).

وفي الحقيقة، لم تكن عبادة الإنس والجن مقصودة في يوم من الأيام من أجل نفع يصل إلى الله سبحانه وتعالى من وراء ذلك، فهو الغني عن العالمين، لا تنفعه طاعة طائع ولا تضره معصية عاص، وإنما خلقهم من أجل عبادته "ليكمّلهم بهذه العبادة، وليصل بهم عن طريقها ليكونوا أهلا للقائه سبحانه، وليتجلى لهم - إذا [ما] تزكوا- بأنواره و إشراقاته. وقد نوّع لهم سبحانه العبادة، فلم يجعلها على وتيرة واحدة حتى لا يملوا، وحتى يكون في تنوعها تزكية لجوانب متعددة وزوايا مختلفة من الطبيعة البشرية، وحتى تتناسب على تفاوت فيما بينها مع كل الفطر والاستعدادت"(عبد الحليم محمود (مقدم)، الصلاة ومقاصدها للحكيم أبي عبد الله الترمذي، تحقيق: حسني نصر زيدان، (القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي، 1965م)، التقديم. وانظر أيضا عبد الحليم محمود، أسْرارُ العبادات في الإسلام، رقم 148 من سلسلة المكتبة الثقافية، (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، يناير 1966م)، ص32).

على أنّ آراء العلماء قد تباينت بشأن تحديد غاية العبادة في الإسلام:

- فمنهم من ذهب إلى أنّ غايتها هو تزكية النفس وغذاء الروح، وحجتهم في ذلك أنّ القلب لا يصلُحُ، ولا يُفْلُحُ، ولا يَنْعَمُ، ولا يُسَرُّ، ولا يلتذُّ ولا يطيبُ، ولا يسْكُنُ ولا يطمئنُّ، إلا بعبادة ربِّهِ، وحبّهِ والإنابةِ إليه، فهو دائما مفتقر إلى حقيقة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين)(العبودية ،لابن تيمية ، ص84).

- ومنهم مَن يحدد غاية العبادة في الحرية، كالإمام الجنيد من المتصوفة وكذلك ابن تيمية.

- ومنهم مَن يرى أنّ العبادة محضُ ابتلاءٍ إلهيٍّ يصقل الإنسان، وأنّها ضربٌ من الأمانة التي حملها في الحياة الدنيا.

- ومنهم مَن ينحو إلى تقرير أنّ العبادة حق لله على عباده، وحجتهم في ذلك حديث مُعَاذَ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِي: " يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّه عَلَى الْعِبَادِ؟ " قُلْتُ: اللَّه وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: " أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّه إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ " قَالَ: قُلْتُ: اللَّه وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: " يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ " وأخرجه البخاري "5967". وفي الحديث عَنْ سَلْمَانَ ابْنِ الْإِسْلَام ، قَالَ: " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ قَالَ: وَاحِدَةٌ لِي وَوَاحِدَةٌ لَكَ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَأَمَّا الَّتِي لِي فَتَعْبُدُنِي لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ فَمَا عَمِلْتَ مِنْ شَيْءٍ جَزَيْتُكَ بِهِ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَمِنْكَ الْمَسْأَلَةُ وَعَلَيَّ الْإِجَابَةُ "أخرجه ابن شيبة في مصنفه وفي رفعه ضعف.

- ومنهم من ربط غاية العبادة في الإسلام بتحصيل الثواب وتجنب العقاب، وحجتهم في ذلك قول الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} (الإسراء: 57). وأن ذلك يتسق مع استغناء المولى عز وجل عن عبادة الخلق حيث أخبرنا سبحانه على لسان نبيه سليمان عليه السلام: {قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيم} (النمل: 40)، وأوحى إلى لقمان: {أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيد}(لقمان: 12)، وفرض حج البيت على عباده المؤمنين: {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِين} (آل عمران: 97).

وخاطبنا في الحديث القدسي بمثله ، فعَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: " يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّه وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ" قَالَ سَعِيدٌ: كَانَ أَبُو

إِدْرِيسَ الخَوْلَانِيُّ، إِذَا حَدَّث بِهَذَا الحَدِيثِ، جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ. (مسلم) 55 - (2577).

7- سمات النظام التعبدي في الإسلام:

إن من أبرز سمات النظام التعبدي في الإسلام أنه "يدور حول تنظيم علاقة العبد بخالقه تنظيما يحقق في المقام الأول علاقة انسجامية ومستقيمة بين العبد وربه، وفي المقام الثاني يحقق التوازن والانسجام المنشودين بين مطالب الروح والعقل والنفس والجسد، ويحقق في المقام الثالث انسجاما كليا بين الإنسان وسائر المخلوقات الأخرى التي يحتويها الكون"(انظر فهم الصلاة للمحاسبي ، تحقيق: محمد عثمان الخشت، (القاهرة: مكتبة القرآن، 1983م)، ص19).

فقد جمع القرآن الكريم ما بين التفكر والتذكر حين قال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (آل عمران: 190-191).

والحال أنّ القرآن والسنة يفيضان بالدعوة إلى ذكر الله والتفكر في ملكوته دعوة ملحة دائمة بهدف إيقاظ شعور الإنسان ووعيه لما يدور من حوله وصولا إلى الوقوف على موقعه من الوجود والكون، فكلما كان ذكره لله عميقا شاملا غنيا بالمعاني والمشاعر كلما كان وعيه لموقعه الوجودي عميقا وشاملا؛ "فالإخلاص في عبودية الإنسان لله والتحرر من العبودية لسواه على الإطلاق وإفراده بالألوهية واستشعار هذه المعاني استشعارا مستمرا بقدر الإمكان هو المعنى الأساسي والجوهر الأصيل في صلة الإنسان بالله. وأعلى معاني الإنسانية وأرفع درجاتها ليس في سعة العلم، ولا في قوة الجسم، ولا في حسن التصرف في المجتمع، ولا في الأدب الاجتماعي، وإنما هو في تحقيق معنى العبودية لله في نفس الإنسان"(انظر نظام الإسلام المبارك ، 70-71).

ومن ثم فإن لشمولية العبادة بهذا المعنى آثار إيجابية على الإنسان والحياة من بينها: أنها تصبغ حياة المسلم وأعماله بالصبغة الربانية، فتجعله مشدودا إلى الله في جميع ما يقوم به في الحياة. فإذا علم ذلك استكثر من كل عمل نافع يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله، وأتقن عمله الدنيوي ابتغاء رضوان الله.

ومن الآثار الإيجابية أيضا أن فهم العبادة بهذا المعنى يمنح المسلم وحدة الوجهة، ووحدة الغاية في حياته كلها {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (الأنعام: 161-164).

وختاما، يمكن القول: إذا كان جوهر الدين والعبادة أمرا واحدا، بحسب ما تقدم، فإن ذلك يعني أن الدين والقيم/الأخلاق أمران لا ينفصلان ما دامت الأعمال القلبية ضرورة ملازمة لكافة صور العبادات، وما دام معنى الإيمان نفسه لا يتحقق إلا بارتباط الجوارح الظاهرة والباطنة معا. ومن هنا كان تأكيد الإمام محمد عبده أن الله لم يفرض من الأعمال إلا لما أوجب من التحلي بمكارم الأخلاق(انظر نظام الإسلام للمبارك ، 3/468).

فليست العبادات في الإسلام ضرائب تُجبى، أو واجبات تُقضى، ولكنها مظهر الصلة بين العبد وربه، وجسر الوصال بين الله وخلقه، فضلا عن أنها مظهر من مظاهر تكريم بني آدم: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا} (الإسراء: 70)، وثمنٌ لتحمل الأمانة التي ألقاها الإنسان - بمحض إرادته- على عاتقه {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً} (الأحزاب: 72).

ومما لاشك فيه أن سر الارتقاء الروحي والجماعي الذي أدركه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما يكمن في أنهم كانوا موصولين بالله على أساس صحيح، فلم يشعروا في الفعل له بما يشعر به الكثيرون من عنت وتكلف، ولا بما يعانون من شرود وحيرة. فهناك طبيعتان في الإنسان غير منكورتين: الإعجاب بالعظمة، والعرفان بالجميل. وجوهر العبادة ودوافعها هو القيام بحق الشكر للخالق الذي لا تعد نعمه ولا تحصى، ودافع الشوق والرغبة التي تملأ القلوب والنفوس، وليست طاعة القهر والإذلال أبدا. وأسلوب القرآن يربي في المسلم هذه المعاني، ويقيمهم على عبودية الحب والتفاني، عبودية الإعجاب بالعظمة والإقرار بالإحسان(انظر فقه السيرة لمحمد الغزالي ، (القاهرة: دار الشروق، القاهرة، 2000م)، ص 148-150).